
تليجرام : هنا سور الأزبكية
أُوْغُسْتْ سْتْرِيْنْدْبَرْغْ
الآنسة جُوْلِيْ
Telegram:@mbooks90
ترجمة: إبراهيم عبد الملك
منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

الآنسة جُوْلِي

مأساة طبيعيّة بقلم:

أُوْغُسْتْ سْتْرِيْنْدْبَرْغْ

مع مُقَدِّمَةٍ لِلمُؤلِّف

تَرجَمَها عَن السُّوَيْدِيّة:

إبراهيم عبد الملك





الكاتب: أُوْغُسْتْ سْتْرِينْدْبَرْغْ

عنوان الكتاب: الآنسة جُوْلِيْ

ترجمة: إبراهيم عبد الملك



الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com takweenkw

takween_publishing TakweenPH

www.takweenkw.com

توطئة المترجم

ليس الغرضُ من هذه التوطئة تقديمَ الكتاب إطلاقاً، ففي المقدّمة التي وضعها المؤلّف نفسُهُ ما يغني عن ذلك؛ إنما المقصودُ إيضاح بعض شؤون ترجمة هذا العمل، ولذا سأحاول الاقتضابَ، ما أمكن ذلك، باختزال ما أودُّ إيضاحَهُ هنا في عددٍ من النقاط:

١. ترجمات سابقة:

ليست هذه أولَ مرةٍ تُتَرجَمُ فيها هذه المسرحية إلى العربية. لكنّ هذه الترجمة تمّت عن الطبعةِ الشوَيديةِ الأولى منها، (والتي صدرت عن **دار يوسف سيلغمان / Joseph Seligmanns Förlag** في ستوكهولم عام ١٨٨٨) لا عن الإنجليزية أو غيرِها من اللغات. وقد حاولت في هذه الترجمة إعادةَ شيءٍ من «حقّ» المؤلِّف المُستَلَبِ الذي أرى الترجماتِ السابقة (بما في ذلكَ الترجمة الإنجليزية) استهانت به حدَّ الانتقاص والتشويه، وعلى أكثر من صعيد. وسأُبَيِّنُ شيئاً من ذلكَ في ما يلي.

٢. إسمُ المُؤلّف وعنوانُ المسرحية/ ستريندبَرغ، لا ستراندبَرغ. جُولي، لا جوليا:

لا بُدَّ من الإشادَةِ بكلِّ جُهدٍ مُخلِصٍ تَمَّ في ما مضى لِنقلِ هذا العملِ إلى القارئ العربيّ، وليسَ في النيَّةِ على الإطلاقِ أن أبخَسَ حقَّ أيٍّ مِمَّنْ سَعوا في ذلك هنا. لكنَّ المؤسِفَ، بل المُخجِلَ، حقاً أن يكونَ بعضُ أخطاء ما سبق من جهودِ ترجمةِ عملٍ كهذا فاقعاً، لا مُبَرِّرَ له مهما تأمَّل المرءُ أسبابَ تلك الأخطاء. ففي إحدى تلكَ الترجماتِ، على سبيلِ المثال، والكلامُ لا يتجاوز غلافَ طبعةٍ منها، تجدُ اسمَ المؤلِّفِ قد «غرِّبَ» إلى «**ستراندبرغ**» وعنوانَ المسرحيةِ قد صار «**الآنسة جوليا**»، وهذانِ خطآنِ استلَبا أوّلَ حقوق المؤلِّف، وأشدّها بداهةً، ألا وهو معرفةُ اسمِهِ وعنوانِ كتابِهِ (ومعنى وإحالاتِ الأخير) ومن ثمَّ التفريقُ بينَهُ وبينَ غيرِهِ؛ وقِسْ على ذلك.

مؤلّفُنا هو **يُوهان أوغُسْت سْتْرِيندْبَرْغ/Johan August Strindberg** (١٨٤٩ - ١٩١٢)، أشهرُ وأهمُّ أدباءِ الشوَيد قاطبةً، ونظيرُ شكسبير فيها أثراً وتأثيراً. كانَ مسرحياً وروائياً وشاعراً ورسّاماً ومُترجِماً وصحافيّاً ومصوِّراً فوتوغرافياً (حذفتُ ما

يزيدُ عن عشرةِ أسطرٍ من سِيرتِه، لأنّها لَن تَفيهِ حقَّهُ على أيّةِ حالٍ، وللقارئ الكريمِ أن يبحثَ عن سيرَتِهِ للاستزادة). ولولا أنّ صيغةَ تعريبِ اسمِهِ هذه قَد بَلَغَت من الشُّهرَةِ حدّاً منحها الكثيرَ من الرُّسوخ، لَعَرّبْتُ اسمَهُ، كما يلفِظُهُ أبناءُ جِلْدَتِهِ، إلى «**أوگُسْت سْتْرِينْدبَرْي**»؛ باستخدامِ الكافِ المُعَجَّمة وسَطَ اسمِهِ الأول وكتابةِ لَقَبِ عائلتِهِ بياءٍ في نهايتهِ، بدلاً من الغينِ أو الجيم).

أمّا تَسمِيَتُهُ بـ «**أوغُست ستراندبرغ**» (وبعيداً عن الفرق في المعنى بين الاسمَيـنِ)، فمَرَدُّها إلى الجهلِ بأنَّ هناكَ أديباً سويدياً بهذا الاسمِ؛ عاصَرَ صاحبَنا، واسمُه الكامل **كارْل ڤِيلْهَلْم أوغُست ستراندبَرغ**/ Carl Vilhelm August Strandberg (١٨١٧ - ١٨٧٧) وكانَ شاعراً ومترجماً، أهمُّ آثارِهِ الأدبية ترجمتُهُ لأعمال بايرون إلى السُّوَيدية. ولا علاقةَ له، من قريبٍ أو بعيدٍ، بِـ **ستريندبَرغ**.

وأمّا المسرحية فعنوانُها **الآنِسَةُ جولي**/Fröken Julie، عن اسم «الشخصيَّةِ» الرئيسةِ في المسرحية، ابنةِ الكونت وسيّدةِ المنزل. وفي لفظِ الاسم لعبٌ على الجِناس شبهِ التّامِ مع لفظِ كلمةِ «joli» الفرنسية التي تعني «جميل» أو «حَسَن» أو «ظريف». واسم «البطلة» هذا في حدِّ ذاتِهِ تَفصيلٌ أضافَهُ **ستريندبَرغ** إلى تفاصيلَ بعينِها في المسرحية (كالتحدُّثِ بالفرنسية أحياناً، وذِكرِ النبيذِ الفرنسيِّ وتفضيلِهِ... إلخ) تُظهِرُ تعلّقَ الطبقةِ الأرستقراطيةِ في السُّوَيد بمظاهرِ الأُبَّهةِ الفرنسية، كما في العديدِ من بلدانِ أوروبا التي تنظرُ بإكبارٍ لكلِّ ما يأتي من فرنسا. إنَّ إهمالَ هذا الجناس في تعريب الاسم يشي بسطحيَّةٍ مرفوضةٍ في التعاملِ مع التفاصيلِ في ترجمة عملٍ لمؤلِّفٍ بحجم **ستريندبَرغ**، يعني كلُّ تفصيلةٍ وكلمةٍ في عملِهِ بقصديَّةٍ شاهقة.

٣. ما يقصده ستريندبَرغ بقولِهِ «مأساةٌ طبيعيّة»:

لقد أراد **ستريندبَرغ**، وبقصديّةٍ جليّةٍ أيضاً، تثبيتَ انتماءِ مسرحيتِهِ هذه إلى **الحركة الطّبيعيّة** (أو **الطّبيعانيّة**) /Naturalism: وهي من الحركاتِ الدرامية التي تَبَلْوَرَتْ في المسرح الأوروبيّ عن **المذهب الطّبيعيّ** في الفنّ والأدب، والذي ظهر أواخرَ القرنِ التاسع عشر، تأثُّراً بالنظرة الداروينية إلى الطبيعة، حيث نادى

بهذه الحركة عددٌ من المسرحيينَ والأدباء، كانَ **أوغست ستريندبَرغ** من أبرزهم، بعد الفرنسي **إيميل زولا** (١٨٤٠ - ١٩٠٢) مؤسس **المذهب الطّبيعي**. وتُعتبَرُ مسرحية **الآنسة جولي** أهمَّ مثالٍ تطبيقيّ مسرحيّ حدّدَ سماتِ وملامحَ هذه الحركةِ /التيّارِ لا مِنْ خلالِ النّصّ المسرحيّ وحدَهُ، بل ومن خلال المُقدّمة التي وضعها **ستريندبَرغ** للمسرحية؛ تلكَ المُقدّمَةُ التي يراها كثيرون بمثابةِ «بيانِهِ الأدبيّ» الشخصيّ، أسوةً ببيانِ **إيميل زولا** في كتابه **الرواية التجريبيّة**/Le Roman experimental.

٤. «**نبلاء العصبِ الجُدُدُ أو نبلاءُ العقلِ الكِبار**»:

تَرِدُ هذه العبارةُ في المقدّمة التي وضعها المؤلّف للمسرحية. هنا تَورِيَةٌ وسخريةٌ لاذعة من **ستريندبَرغ** يعتمد فيها لَعِباً لغوياً، خصوصاً ذلك الناشئَ من الجِناس بين كلمَتي «عقل/Hjärn» و«حديد/ صُلب/ Järn» بالسّويدية. وفي رسالةٍ خاصة، جواباً على استفسارٍ مِنّي بخصوص هذه التورية، علَّقَ الشاعر والناقد ماغنوس ويليام أولسون موضّحاً بالقول: «إنّهُ ساخِرٌ هنا، هازئٌ، ويقصدُ خصومَهُ المثقفينَ، والنساءَ منهم، بل حتّى المدافعينَ عنهنّ، خصوصاً. ففي كلمة «عَصَب/ Nerv» إحالةٌ مباشرةٌ إلى ما هو «أنثَوِي»، لأن النّساءَ انتُقِدْنَ لكونِهِنّ واهناتِ العَصَبِ (Nervsvaga) ومُتَوتّراتٍ مُرتَبِكاتٍ (Nervösa) وغيرَ جديراتٍ بالثقةِ تبعاً لذلك. أما تعبيرُ «نبلاء العقل» فمن ابتِداعِهِ لما فيهِ من تشابهٍ صوتيّ، بالسويدية طبعاً، مع كلمة «حديد /صُلب» التي تُعتَبَرُ رجوليّةً ضِمنيّاً. فبدلاً من الرجولة «الحقيقية» التي تُحتَسَبُ لنبلاءِ النّفس، بما فيهم من شجاعةٍ وصلابة، هناكَ تلكم النساء الضعيفات وأولئك الرّجالُ النسائيو الطبع والخُلُق (إبسن، مثلاً) المحكومونَ بأعصابِهِم والمعتقدونَ بالـ«عقل» (Hjärnan) عوضاً عن «الصلابة» (Järnet)».

أكتفي بكلامِ الشاعرِ الصديقِ توضيحاً لهذه التفصيلة، لكنني أجِدُ نفسي مُلزَماً بالإشارَةِ إلى أنّ النّظرةَ التي كانت سائدةً، ولم تَزَلْ شائعةً، عن «كراهيةِ **ستريندبَرغ** للمرأة» قَدْ وَهُنَتْ وضَعُفَتْ في الآونةِ الأخيرةِ، خصوصاً بعد أن تَمَّ نَقْضُ أسُسِها ودحضُها في كتابٍ هائلٍ عنوانه Lite djävul, lite ängel! (**شيءٌ من شيطان، شيءٌ من ملاك!**) للأديبة السّوَيدية - البريطانية أيڤور مارتينوس/Eivor Martinus

(١٩٤٩-٢٠٢٣) تناولت فيه علاقةَ **ستريندبرغ** بالمرأة عبْرَ بحثٍ رصينٍ ومراجعةٍ جادّة لآثارِهِ عموماً، ورسائلِهِ إلى من ارتبط بهنّ من النساء خصوصاً. لكنّ هذا موضوعٌ قائمٌ بحدّ ذاتِه، وبحثٌ طويلٌ يجدرُ عدمُ الخوضِ فيهِ بعجالةٍ هنا. ولذا سأتركه، أملاً في العودةِ إليه مستقبلاً.

٥. ما ضاعَ وما كاد يضيع في التّرجمة:

نظراً لما سبقَت الإشارةُ إليهِ من الحضورِ الطّاغي لِـ«قصديّةِ المؤلّف» في جميعِ تفاصيلِ العمل، فَلم يؤلِمني شيءٌ في هذه الترجمة سوى ضياعِ تفصيلَتينِ أفلَتَتا رغمَ أنفي من نقلِهما إلى العربيةِ مِثلَما أرادَ لهما **ستريندبرغ** في النصّ الأصليّ، وثالثةٍ أُجبِرتُ على «التّصَرُّفِ» فيها، وكما يلي:

(أ) «Mésalliance»:

يستخدمُ **ستريندبَرغ** اللغةَ الفرنسية في أكثر من موضعٍ من الحوار، على لسان **جان وجولي**، لإظهار ما سَبَقَت الإشارةُ إليه من تعلّق الطبقة الأرستقراطيةِ الشوَيدية، متمثّلَةً بالآنسة **جولي** نفسها، بكل ما هو فرنسي من جهة، وكذلك لتبيانِ بعض مَلَكاتِ **جان**، الخادِمِ، التي طوَّرَها كجزءٍ من سعيِهِ للتشبُّهِ بـ«عِليَةِ القوم» ومدى تَكَلُّفِهِ في ذلكَ من جهةٍ أخرى. وقد آثرتُ الإبقاءَ على أغلبِ تلكَ العباراتِ والكلماتِ الفرنسية في متنِ النّصّ، كما وَرَدَتْ في أصلِه، وإيضاحَ معانيها في الهامش (إلا في حالَتَينِ اكتَفيتُ فيهما بتعريب الكلمة لشهرتِها، والكلمتان هما: «Bravo/براڤو» التي تقابلُ في سياقِها كلمةَ «أحسَنتَ»، و«Monsieur / مُسيو»، التي تعني «سيّدي/سيّد»). وقد تمّ لي ذلك إلا ما خصّ مفردة «Mésalliance» التي ترد على لسانِ **جان**، ومعناها الزواجُ أو الارتباط بمن ينتمي إلى طبقةٍ اجتماعيةٍ أدنى، ولا مُرادِفَ بالعربيةِ لها كمصطلح. لذا وجدت نفسي مجبراً على الاستعاضةِ عنها بكلمة «انحدار»، وسيرى القارئ مؤدّاها في موضعها من سياق النّص.

(ب) حكاية «ابنة الطّحان»:

في النّصّ الأصليّ، وردّاً على جولي في ذروةِ تجلّي أناها ومكاشفاتِها، يقولُ

جان ما تَرْجَمْتُهُ: «ضعي الطّحانَ في الكِيسِ»، مُلَمّحاً إلى حكايةٍ شَعبيّةٍ شهيرة في السُّوَيد (حكايةِ «ابنة الطّحان»/ Mjölnarens dotter) بقصدِ تذكيرِ جولي بجدّها الطّحانِ أولاً، من بابِ المُعايَرة، وبقصدِ إحالَتِها إلى العِبْرَةِ من تلك القصة ثانياً. تلك العِبرَةُ التي ذهَبَتْ مثلاً في السُّوَيد، تقولُ تَرجمتُه الحرفية: «الصمتُ أفضلُ مِنَ سيّءِ الكلام». ولأن ترجمةَ ذلك التلميح للقارئ العربي تفتقر إلى الإحالةِ المنشودة دونَ قصّ الحكاية المذكورةِ بأكملها وصولاً للعبرةِ منها، فقد استعضت عنها بتلميحٍ للقولِ/ المثلِ الشهير عندنا: «إن كان الكلامُ من فضة، فالسكوتُ من ذهب». فانتهت العبارة أخيراً إلى «أكرِميني بذهبِ سكوتِكِ...» إلخ، مما سيراه القارئ في موضعه.

(ج) التدرُّجُ صعوداً ونزولاً بينَ التبجيلِ والاحترام وانعدامِهما عبْرَ استخدامِ ضمائرِ المخاطَبَةِ في حوارِ «أشخاصِ» المسرحيةِ الثلاثةِ.

أعتَرِفُ أنَّ المَهَمَّةَ كانت عسيرَةً للغايةِ، فيما يخصُّ هذه التفصيلةَ تحديداً. فصيَغُ التبجيلِ والاحترامِ في العربيةِ تختلف عن تلكَ التي في السُّوَيدية (سابقاً وحاليّاً)، مما كادَ يربِكُ سياقاتِ المخاطبة في النصّ العربي، مقارَنَةً بسلاسةِ الأمرِ المتجلّيةِ في النصّ الأصليّ. ففي النص الأصليّ، وفي بدايةِ المسرحية تحديداً، اعتمَدَ ستريندبَرغ صيغةَ الغائب باستخدامِ ضميرِ المُفرَدِ الغائب (هو /Han) على لسان الطّاهيةِ كْرِيستين عندَما تُخاطِبُ جان، وكذلكَ جعلَ الآنسة جولي تفعلُ وهي تخاطبه أوّلَ دخولِها، وكانت هذه الصيغة من أساليب بيانِ الاحترام المصحوبِ بالحياءِ إزاءَ الرّجُلِ المُخاطَبِ في السُّوَيد. وتتحوّلُ صيغة الغائب إلى صيغة الجمع المخاطَب (أنتم / Ni)، الأكثرِ رسميّةً، على لسانِ جولي تبعاً لتذبذب «اعتباراتِها» لِجان. بينما نرى جان يبدأ مخاطبةَ كريستين بضميرِ المخاطَبِ المفرد (أنتِ/Du)، إذ لا كلفةَ بينهما في نظره، في حينِ يُخاطِبُ الآنسةَ جولي بضمير الجمع المخاطَب (أنتم/ Ni) احتراماً. وبمرور الوقتِ ومع «تطوُّر الأحداث» وانقلاباتِ الحالاتِ النفسيّةِ للثلاثةِ جرّاءَها نرى، في النص الأصليّ، أثرَ ذلكَ التطوّر وتلكَ الانقلاباتِ على الحوارِ فيُبَدِّلُ الثلاثةُ صيغَ المخاطَبَةِ، ليختفي ضميرُ الجمعِ (أنتم) من خطابِ جان للآنسة، وضميرُ المفردِ الغائب (هو) من خطابَي الآنسة وكريستين كي يحلّ ضميرُ المخاطب المفرد (أنت) محلّهما، في حالات الانفعال. ثم يعود الثلاثةُ بعد ذلك إلى

صيغ الاحترام حين تخف حدّةُ احتدامِ مشاعرهم. وقد تمّ ذلك لستريندبَرغ بسلاسةٍ من جهة، تبعاً لأعرافِ المخاطَبةِ السائدةِ زمنَ تأليفِ المسرحية، وبحساسيّةٍ شديدةٍ تلتقطُ مجسّاتُها اختلاف الحالة النفسية لكل متكلّمٍ وبواقعيةٍ شديدة الجرأةِ من جهةٍ أخرى. وكان ذلك كلُّه تجسيداً عملياً لرؤى المدرسةِ الطّبيعيّة التي أرادها ستريندبَرغ نهجاً له، حتّى أنّه لَمْ يَدَعْ هذه التفصيلة دونَ الإشارةِ إليها من بابِ التأكيد على أهمّيَتِها في الحوارِ نفسِه، وذلكَ حينَ تقول جولي مخاطِبَةً جان في إحدى اللحظاتِ المفصلية: «حضرَتُكِ! - قُل أنتِ! لا حواجِزَ بيننا بعد الآن! قُل!». فالمسألةُ مُتَعَلّقَةٌ بالتّكلُّفِ، والتّمثيلِ، والأقنِعَةِ الاجتماعيةِ التي يضعها الثلاثةُ، مروراً بسقوطِ تلك الأقنعة وانتهاءً بإعادةِ استهلاكِها، ليكون ذلكَ كلُّه بياناً للزّيفِ المُطبِقِ على بيئتهم إلى حدٍّ يشعرُ عندَهُ المُتَلَقّي (قارئُ النّصّ أو المتفرّجُ على المسرحية) بسماجةِ ابتذالِها من قبلِهم.

وحينَ اطّلَعتُ على الترجمةِ الإنجليزية للمسرحيةِ (ترجمة أعمالِ **ستريندبَرغ** الكاملة إلى الإنجليزية، والتي أظنُّها أساسَ بعض الترجماتِ السابقةِ إلى العربية) وجدتُ المترجمَ الإنجليزيَّ قد سطّحَ كلَّ ما يخصُّ هذه التفصيلة باستخدامِ الضمير «You/أنتَ، أنتِ، أنتما، أنتم، أنتنّ» كحلٍّ «سحريٍّ» يُجَنِّبُهُ الكثيرَ من الصّداعِ في صيغِ المخاطَبَةِ على امتدادِ النص. اِستسهالٌ شنيعٌ، برأيي، وهَدْمٌ للكثيرِ مما أولى **ستريندبَرغ** عنايةً بالِغَةً لِبنائه.

وهنا اضطرِرتُ إلى التّصَرُّفِ، محاوَلَةً مني للاحتفاظِ بكلِّ ذلكَ الارتباكِ النفسيّ الذي تعمَّدَهُ **ستريندبَرغ** وقَصَدَ تبيانَهُ على مدى الحوارِ وتقلُّباتِهِ تبعاً لاضطراباتِ أحوالِ الشخوصِ. فاستَعَضتُ عن ضمير المُفرَدِ الغائب (هو)، في خطابِ الطاهيةِ والآنسة، بذكر اسمِ **جان** كي يتِمَّ لي الاحتفاظُ بصيغةِ مخاطبةِ الغائب التي تُبدي الاحترامَ أو تتكلّفُه. مثالاً على ذلك أن تقولَ **كريستين**: «هل رأى جان ذلك؟» بدلاً من «هل رأى (هو) ذلك؟». أما في حوارِ **جان** مع الآنسة، فقد اضطررتُ في العديدِ من المواضِعِ إلى استخدامِ صيغة «حضرتكِ»، وهو ما لَم يفعلْهُ المؤلّفُ، إضافةً إلى استخدامِ ضميرِ الجمع المُخاطَبِ «أنتم» واستخدامِ صيغةِ المفرد الغائبِ (كأن يقول **جان**: أتقصد الآنسةُ كذا؟ وهو يخاطبها) والصيغتانِ الأخيرتانِ هما ما اعتمده

ستريندبرغ نفسه لبيان الاحترام، تبعاً لحالِ جان وتحوُّلاتِ خطابِهِ على طولِ المسرحيّة.

٦. الهامش:

لقد آثَرْتُ استخدامَ الهامِشِ، لتوضيحِ الغامض والمغلق وما قد يسبب التباساً. وأرجو أن لا يجد القارئُ في ذلك سوى ما ينفعه.

٧. الخط المائل:

استخدم ستريندبَرغ الخط المائل في متن نص المسرحية متى ما ظهر صوتُه الشخصيّ كمؤلِّف للعمل وراويةٍ ومُحَرِّكٍ لأحداثِهِ وشخوصه من جهة، وكذلك بالطبع لبيان أحوالِ ومشاعر الشخوص الثلاثة أثناء حواراتهم من جهةٍ أخرى. وقد التزمت الترجمة بذلك.

٨. الاقترابُ في التَّرجمةِ من أسلوبِ ستريندبَرغ:

كلُّ ما مضى يصُبُّ هنا! كيف؟ فَلْنَرَ:

في المُقَدِّمَةِ الّتي كَتَبَها ستريندبَرغ للمسرحيَّةِ، على سبيلِ المثالِ، يقول:«في أوپرا **عايدة** رأيتُ خلفيَّةً مائلةً كانت تقودُ العينَ في منظورٍ مجهولٍ، ولَمْ تَبْدُ نابعةً من روحِ تناقضِ الخطِّ المستقيمِ المُتعبِ.» ثُمَّ يُرْدِفُ: «لعلَّ تجديداً آخرَ قد لا يكونُ غيرَ ضروريّ..». وأتَخَيّلُ قارئاً عربياً مُشَكِّكاً، وهو يقرأ العبارَتينِ السابقتينِ، يقولُ لِنَفسِه: «ما هذه الصياغة الغريبة؟» (إنْ لَمْ يَقُل «الرَّكيكَة») وقد يظنُّ تلك الصياغةَ «فَذْلَكَةً» زائدةً من مُترجِمٍ لا يُحسِنُ عَمَلَه. فَلماذا التّعقيدُ (في النصّ العربي) وصياغةُ العبارةِ الأولى يمكنُ أن تكونَ: «ولَمْ تُناقِضِ الخطَّ المستقيمَ المُتعبَ.» بينما تكونُ الثانية: «لعلَّ تجديداً آخرَ قد يكونُ ضرورياً...» لِيَصِلَ المعنى بِيُسْرٍ وَسَلاسة؟!

في هذا المثالِ تحديداً، يعرضُ ستريندبَرغ فِكرَةً جديدةً، مُقتَرَحاً جديداً، لكنَّهُ لا يُلقي تلكَ الفكرةَ لقارئِهِ باعتبارِها مُسَلَّمَةً من المُسَلّماتِ أو حقيقةً يجبُ الأخذُ بِها دونَ نِقاشٍ، بَلْ يناقِشُها ضِمناً في عبارَتِهِ ويُحاجِجُ مَن قَدْ يُفَكِّرُ في رَفضِها من خلالِ أسلوب «نَفيِ النّفي». وعدا عن الظّاهِرِ من اللباقَةِ والتّأدُّبِ في الطّرْحِ، فهو

يستبِقُ ذلك الرّفضَ، الّذي يفترِضُ أنّ قُرّاءَهُ (وخصوصَهُ المُعانِدينَ منهم على وجهِ الخصوص) قد يَتبنّونَهُ موقِفاً من مُقترَحِهِ. إنّهُ أسلوبٌ في التّمهيدِ وبناءٌ لِتَقبُّلِ الفكرةِ المُقترَحةِ الجديدةِ تدريجيّاً.

مثالٌ آخرُ من متنِ نصِّ المسرحيّةِ نفسِهِ، حينَ يتحدّثُ **جان** إلى **كريستين** واصِفاً النّبيذَ بأنّهُ «قليلِ الاعتدال قليلاً / lite för lite tempereradt» قد تستفِزُّ هذه العبارةُ القارئَ، حيثُ بالإمكانِ ترجمتُها إلى «قليل الاعتدالِ بَعضَ الشّيء»، مثلاً. لكنّ **جان**، الخادِمَ المُتَكلّفَ المُتَشَبِّهَ بسادَتِهِ، لا يكتفي في تلكَ اللحظةِ بانتقادِ النّبيذِ الفاخِرِ لإظهارِ «رِفعَةِ ذَوْقِهِ»، وهي إحدى مَلَكاتِهِ الّتي يتباهى بها، بل يفعل ذلكَ عبرَ لَعِبٍ لُغَويّ يُظهِرُ مَلَكَةً أخرى لهُ في تنميقِ وتزويقِ الكلامِ.

سأكتفي بهذه العباراتِ الثلاثِ كأمثلةٍ على ما أودُّ تبيانَهُ هنا، على أنّ ثمَّةَ أمثلةً أخرى، تتناثرُ على امتدادِ النّصِّ، تتطلّبُ من القارئِ الكريمِ سَعَةَ صَدرٍ أوّلاً، وقليلاً مِنَ التّأمُّلِ ثانياً. فَدِقّةُ ستريندبَرغ في سَبْكِ نُصوصِهِ وإيصالِ مَقاصِدِهِ ورسمِ شُخوصِه وَسَرْدِ أحداثِ حكاياتِهِ تتجَسّدُ في تفاصيلَ كهذه. ولا أسهلَ من أن تقولَ «لَقَدْ حاولتُ» بَدَلاً مِنْ «لَقَدْ قُمتُ بِمُحاوَلَةٍ»، كما اختارَ ستريندبَرغ أن يفعلَ في ختامِ مُقَدِّمَتِهِ، لكنّ لَهُ قَصْداً في اختيارِ الثانيةِ، وكانَ واجباً عليَّ كمُتَرجِمٍ أنْ ألتَزِمَ بِخَياراتِهِ في محاولَتي لإيصالِ أسلوبِهِ، لا أنْ أستسهلَ اعتمادَ صياغاتٍ أخرى لِمُجَرّدِ كونِها أيسَرَ فَهماً أو أسرَعَ وصولاً للقارئِ العربيّ، فنتيجةُ ذلكَ حينئذٍ أن أُنشئَ نَصّاً ليسَ فيهِ من صاحبِ النّصِّ الأصليّ سوى ادّعاءِ النِّسبَةِ لَه.

٩. ختاماً، وباقتضابٍ شديد:

كما يقول **هُوَ**: «لقد قُمتُ بِمُحاولة...»، وآمَلُ أنني لَمْ أُخفِق.

إبراهيم عبد الملك

ستوكهولم، يونيو/حزيران ٢٠٢٣



مقدّمة

لَطالَما بَدا لي المسرحُ، كما الفنّ عموماً، وكأنّهُ Biblia pauperum: **كتابٌ مقدّسٌ** مُصَوّرٌ لأولئكَ الذينَ عَدِموا القُدرَةَ على قراءةِ المخطوطِ أو المطبوع، والمؤلّف المَسرَحِيّ واعِظاً جوّالاً مِنَ العامّةِ يَعرِضُ أفكارَ العَصرِ في قالَبٍ شَعْبِيّ، شعبِيّ إلى حَدّ أنّ الطّبَقَةَ الوسطى، التي تُشَكّلُ غالبِيّةَ جمهورِ المسرح، تستطيعُ دونَ كثيرِ اهتمامِ إدراكَ مَغزاهُ. لذلكَ فَقَد كانَ المسرَحُ دائماً مَدرَسَةً شَعبِيّةً للشباب، وأنصافِ المُثَقّفينَ والنّساءِ، الذينَ لَم تَزَل لَديهم القُدرَةُ على خداعِ أنفُسِهم وعلى تَقَبُّلِ خِداعِ الغيرِ لهم، وأعني هنا الحصولَ على الوَهمِ، وَتَلَقّي الاقتراحاتِ مِنَ المُؤَلّف. لِذلِكَ، وفي عَصرِنا هذا، إذِ البِدائيُّ النّاقِصُ مِنَ الفِكرِ، الذي يجري عبرَ المُخَيِّلَة، يظهرُ للعيانِ وقد تَطَوّرَ إلى انعكاسٍ، وتَفَحُّصٍ، واختبارٍ، فَقَد بَدا لي وكأنَّ المَسرَحَ، كما الدِّين، مِنَ المُحتّمِ عليهِ أن يكونَ في طريقِهِ للاندثار باعتبارِهِ شكلاً مُحتَضِراً نفتَقِدُ الشُرُوطَ الضروريّةَ للاستمتاعِ بِه. مِمّا يُؤَيّدُ هذا الرّأيَ أزمَةُ المَسرَحِ الحالِيّةُ، التي تحكمُ أورُوبّا بأكمَلِها، وكذلكَ وبالقوّةِ نفسِها هذا الظّرفُ المُتَمَثّلُ بِكَونِ البُلدانِ الثقافيةِ التي خَرَجَ منها أعظَمُ المُفَكّرينَ على مَرِّ العصور، وتحديداً إنجلترا وألمانيا، قَد ماتت فيها الدراما، كما هي حالُ الفنونِ الجميلةِ الأخرى خصوصاً.

في بلدانٍ أخرى عادَ الاعتقادُ بالقُدرَةِ على خَلْقِ دراما جديدةٍ من خلالِ ملء الأشكالِ القَديمةِ بِفَحوى مُعاصِرة: ولكنّ الأفكارَ الجديدةَ، مِن جِهَةٍ، لَم يَمضِ عليها ما يكفي من الزّمنِ كَي تَشِيعَ، حتى يحظى الجمهورُ باستيعابِ مغزاها، وَمِنْ جِهَةٍ أخرى فإنّ الصّراعاتِ الحِزبِيّةَ قَد أُوغَلَت في النّفوسِ، حتى شَقَّ على المتعةِ النّقِيّةِ الزّاهدَةِ أن تَحضُرَ حيثُ يناقِضُ المرءُ نَفسَهُ في داخِلِهِ، وحيثُ الغالِبِيّةُ التي تُصَفّقُ أو تُصَفّرُ قَد مارَسَت الكَبتَ بِكُلّ ما يُمكِنُ مِنَ العلانيةِ في قاعةٍ مسرحيةٍ، ومِن جِهَةٍ أخرى فإنّ المَرءَ لَم يستوعِبِ الشّكلَ الجديدَ للفحوى الجديدة، حتى فَجّرَ النّبيذُ الجديدُ تلك القناني القديمةَ.

في هذه الدراما الماثِلة لَم أبحَث عَن صُنعِ شيءٍ جديدٍ -إذ أنّ ذلك غيرُ ممكِنٍ - بَل عَن تَحديثِ الشّكلِ وَحَسبُ تبعاً للمطالِبِ التي حَسِبتُ الحديثينَ مِن أبناء العصرِ

سيفرضونها على هذا الفن. وبهذه الرّوحيّة فَقَدِ اختَرتُ أو تَرَكتُ نَفسي أُوسَرُ بِدافِعٍ يُمكِنُ القولُ بِأنَّهُ يَقَعُ خارِجَ الصراعاتِ الحزبيَّةِ في هذهِ الأيام، كَوْنَ مُشكِلَةِ صُعودِ أو انهيارِ الاشتراكيةِ، ومشكلةِ الأعلى أو الأدنى، الأفضلِ أو الأردأ، الرَّجُلِ أو المرأةِ أنَّها كانَت، ولَم تَزَل، وسوف تَظلُّ مَحَطَّ اهتمامٍ راسِخ. حينَ أَخَذتُ هذا الدّافِعَ مِنْ واقعِ الحياةِ، ممّا سَمِعتُ حكايتَهُ لِسَنَواتٍ خَلَت، إذْ تَرَكَت الحادِثَةُ أثَراً بالِغاً فِيَّ، وَجَدتُهُ يَصلُحُ لتأليفِ مأساةٍ، إذْ لَمْ يَزَلْ مما يترُكُ انْطِباعاً حزيناً، أنْ يَرى المَرءُ فَرداً سعيدَ الحَظِّ يَسقط، أكثرَ بِكَثيرٍ مِن مَوتِ أحد الأقارِب. ولكنَّ زَمَناً ما قد يأتي، نكونُ فيهِ قَد تَطَوَّرنا، واستَنَرنا، إلى حَدٍّ نشاهِدُ فيهِ بلا اكتراثٍ تلكَ التمثيليّةَ الوَحشِيَّةَ، الهازئَةَ، عديمةَ القَلبِ التي تجودُ بِها الحياةُ، ونكونُ نَضَونا عَن أنفُسِنا آلاتِ التّفكيرِ الغادِرَةَ، الدونيّةَ، التي تُدعى المشاعرَ، والتي ستُصبِحُ ضارَّةً ولا لُزومَ لَها، بعدَ أن تكونَ أعضاءُ الحَصافَةِ قَدْ أتَمَّت نُمُوَّها. إنَّ سبَبَ كونِ البَطَلَةِ تثيرُ التَّعاطُفَ هوَ ضَعفُنا في أنْ لا نقوى على مُقاومَةِ الشعورِ بالخوفِ مِن أنْ يُصيبَنا القَدَرُ نَفسُهُ. أما المُشاهِدُ الأشَدُّ حساسيةً فَعليهِ مَعَ ذلكَ أنْ لا يَقْنَعَ بهذا التّعاطُفِ ورَجُلُ المُستَقبَلِ صاحبُ الإيمانِ عليهِ رُبَّما أنْ يشتَرِطَ بضعةَ اقتراحاتٍ إيجابيَّةٍ لتقويمِ الشَّرِّ الحاصل، نِظاماً ما بِكَلِمَةٍ أخرى. ولكنَّ أوَّلَ ما يتوجَّبُ الوعي بِهِ هو أنَّ الشرَّ المُطلَقَ لا وُجودَ لَه، إذْ أنَّ تعاسةَ أحَدِهِم بالسقوطِ هي سعادةُ آخَر، سيُتاحُ لَهُ الصُّعودُ، وهذا التبادُلُ في الارتقاءِ والسّقوطِ يُشكِّلُ واحِدَةً مِن أعظَمِ نِعَمِ الحياة، حيثُ السّعادةُ تكمُنُ في المُقارَنَةِ وَحَسبُ. أما الأنظِمَةُ، التي تسعى لمعالَجَةِ ذلكَ الظَّرفِ المؤسِفِ الذي ينهشُ البازُ فيهِ الحمامَةَ، وكذلك ينهشُ القملُ فيهِ البازَ، فأريدُ مُساءَلَتَها: لِمَ مُعالَجَتُه؟ ليست الحياةُ بهذا الحُمقِ - الحِسابِيِّ حيثُ الكبارُ هم مَنْ يأكُلُ الصغارَ وَحَسبُ، بَلْ كَمْ يحدُثُ أنْ تَقتُلَ نَحلَةٌ أسَداً أو تُفقِدَهُ صوابَهُ على الأقلِّ.

لأنْ تترُكَ هذه المأساةُ التي ألَّفتُها أثراً حزيناً لدى كَثرةٍ إنَّما هُوَ خَطَأُ هذهِ الكثرة. حينَ نَصيرُ أشدّاءَ كالثُّوّارِ الفرنسيينَ الأوائلِ، فسيكونُ مما يتركُ، بِغَيرِ شَرطٍ، أثراً سعيداً وطَيِّباً أنْ نُشاهِدَ سياجَ الحدائقِ الملكيّةِ الحديديَّ مِنْ على أشجارٍ عتيقةٍ داكنةٍ، وَقَفَت داخلَهُ لِزَمَنٍ طالَ أكثرَ مما ينبغي في وجوهِ آخرينَ لَهم الحقُّ نَفسُهُ في غَرسِ زَمَنِهِم؛ انطباعاً طيّباً كذلكَ الذي تتركُهُ رؤيَةُ مريضٍ لا شفاءَ لَهُ ينعمُ بالمَوت!

لَقَد انتُقِدَتْ مأساتي «**الأب**» مؤَخَّراً لكونِها مأساويةً للغايةِ، وكأنَّهم يُطالِبونَ بمأساةٍ مُبهِجة. ينادونَ افتعالاً بِبهجةِ الحياةِ، ومديرو المسارحِ يكتبونَ طلباتٍ لمهازلَ، وكأنَّ بهجةَ الحياةِ تَكمُنُ في السُّخفِ وفي رَسمِ البَشَرِ وكأنَّهم موسومونَ جميعاً بالرُّقاصِ(1) أو البَلَه. أجِدُ بهجةَ الحياةِ في المعاركِ الشَّرِسَةِ الشديدةِ التي تزخر بها الحياةُ، ومتعتي هي أنْ أنالَ شيئاً من المَعرِفَة، أنْ أتَعَلَّمَ شيئاً. ولذا فقد اختَرتُ حالةً غيرَ اعتياديةٍ، ولكنَّها تمثِّلُ تجربةً غنيَّةً، استثناءً، بكلمةٍ واحدة، ولكنَّهُ استثناءٌ عظيمٌ، يُثبِتُ القاعدةَ، ممّا سيَجرَحُ حَتماً أولئكَ الذينَ يُحبّونَ كلَّ تافِه. الضربةُ التّالِيَةُ للعقلِ البسيطِ تكمُنُ فِي أنَّ تَعليليَ للأحداثِ ليسَ يسيراً، وأنَّ وِجهَةَ النَّظَرِ ليست واحدةً. يُستَحَثُّ الحَدَثُ في الحياةِ عادةً -وهذا اكتشافٌ جديدٌ لو أردتَ!- مِن سلسلَةِ دوافِعَ كامِنَةٍ في العُمقِ بشكلٍ أو بآخرَ، ولكِنَّ المُتَفَرِّجَ يختارُ غالِباً الأكثَرَ يُسراً في الفهم طِبقاً لِرأيِهِ، أو الأكثرَ جَدوى حفاظاً على ماءِ وَجهِ قُدرَتِهِ على الفَهمِ. هنا يحدُثُ انتحارٌ. صفقةٌ خاسرة! قالَ النّاس. - حبٌّ مأساوي! قالت النِّسوة. - داءٌ عُضال! قالَ المَريضُ. آمالٌ مُحطَّمة! قالَ الغريق. لكنَّ الدّافِعَ قد يكونُ موجوداً في كلِّ مكانٍ، أو غيرَ موجودٍ في أيِّ مكان، وأنَّ المُتوَفّاةَ خَبَّأت الدّافِعَ الأساس عبرَ تَقدِيمِ دافِعٍ مُختَلِفٍ تماماً، ذَكَّرَ المتفَرِّجَ بِأجمَلِ أيّامِه!

لَقَد عَلَّلتُ المَصيرَ المُحزِنَ للآنسةِ جولي بِظُرُوفٍ شَتّى، هي: الغرائزُ الأساس للأُمِّ، وتَربيةُ الأبِ الخاطئةُ للفتاةِ، وطبيعتُها هيَ وإشاراتُ خَطيبِها إلى العَقلِ الفاسِدِ الضَعيفِ. ثُمَّ استطراداً وأكثرَ دُنُوّاً: جَوُّ الاحتفالِ بليلةِ مُنتَصَفِ الصَّيفِ، وغيابُ الأبِ، واعتلالُها الشَّهرِيُّ(2)، واشتغالُها بالحيواناتِ، وتأثيرُ الرَّقصِ المُهَيِّجِ، وعَتَمَةُ الليلِ، وتأثيرُ الزُّهورِ الأفروديتيُّ(3) الشديدُ، وأخيراً الصُّدفَةُ التي تسوقُ الاثنينِ مَعاً إلى مكانٍ فيه خلوة، زائداً جاذِبيَّةَ الرَّجُلِ المُثيرةَ.

بذلكَ فإنني لَم أتناولِ المسألةَ من جانبٍ واحدٍ فسلجيّاً، ولا قَصَرتُ الدّافِعَ على الجانِبِ السايكولوجي، ولا حَصَرتُ السببَ بالوراثةِ عَن الأم، ولا ألقيتُ اللومَ على الاعتلالِ الشَّهرِيِّ دونَ سواه، ولمْ أستبعِد كلَّ ما عدا «الفُجور»، ولَم أكتَفِ بالوَعظِ الأخلاقيِّ وحدَه.

أريدُ هنا مَديحَ نفسي على هذه التَّعَدُدِيَّةِ في الدَوافِع، فهي سابِقةٌ! وإنْ كانَ آخرونَ قَد فعلوها قبلي، فالثَّناءُ قائمٌ لأنني لَم أكُنْ وحدي صاحبَ مُفارَقاتٍ، كما تُسَمَّى الكُشوفاتُ جميعاً.

أمّا ما يخصُّ رَسمَ الشَّخصيّاتِ فَقَدْ جَعَلتُ الشُّخوصَ «عديمي الشَّخصيَّةِ» على الأسُسِ التالية:

اكتَسَبَتْ كلمةُ «شخصيَّة» عبرَ الزَّمَن معانيَ عديدةً. وقَدْ عَنَتْ أصلاً المَلمَحَ الأساسَ المُهيمِنَ للنَّفس البشريّة، وخُلِطَ بَينَها وَبَينَ الطَّبع. ثُمَّ صارَتْ مُصطَلَحَ الطبَقَةِ الوسطى عن الآليَّة: بحيثُ أنَّ الفَرْدَ الذي يبقى للأبَدِ على طبيعَتِه أو يتَكَيَّفُ مَعَ دَورٍ مُعَيَّنٍ في الحياة، أي أنَّهُ بكلمةٍ أُخرى يكُفُّ عن النُّمُوِّ، صارَ يُسَمَّى صاحبَ شخصيَّةٍ، بينما ذلكَ الذي في تَطَوُّرٍ دائِمٍ، ذلكَ المَلّاحُ الماهرُ الماضي في نهرِ الحياةِ، والذي لا يُنجرُ بِحبالٍ مُثَبَّتَةٍ، بل بأخرى تتبَعُ حَرَكَةَ الرِّيحِ حتّى تَعِدَ الريحُ بالارتفاعِ ثانيةً، يُدعى عديمَ الشخصيَّة، وَبِوَسْمٍ ازدرائيٍّ، بِطَبيعةِ الحالِ، لأنَّهُ استَعصى على الأسرِ والتضمِينِ والرَّقابة. هذا المفهومُ المُحافِظُ عن خمود النَّفس نُقِلَ إلى المَسرَحِ، حيثُ تتحكَّمُ المفاهيمُ المُحافِظَةُ دوماً. أصبَحَت الشخصيةُ هناكَ سيِّداً جاهزاً، لا يَظهَرُ إلا ثَمِلاً، مُتَهَكِّماً، وبائساً. ولَمْ يَتَطَلَّبْ فِعلُ «أن تُشَخِّصَ» أكثرَ مِنْ أن يتَّخِذَ المرءُ عاهةً جسديةً، عَرَجاً، ساقاً خَشَبِيَّةً، أنفاً أحمَرَ، أو أن يجعلوا المَعنِيَّ يُرَدِّدُ تعبيراً ما، مثل: «هذا رائع»، أو ما إلى ذلك! هذا الأسلوبُ في النَّظَرِ إلى النّاسِ بتبسيطٍ لم يَبرَحْ أعمالَ العظيمِ موليير. فهاربجون(4) بَخيلٌ وَحَسبُ، رَغمَ أنَّ هاربجون كانَ يُمكنُ أن يكونَ في الوقتِ نفسِهِ بَخيلاً وتاجِراً ممتازاً، وأباً مثاليّاً، وعضوَ بلديَّةٍ طَيِّباً، والأسوأ هو أنَّ «عاهَتَهُ» غايةٌ في الفائدةِ لنسيبِهِ وابنتِهِ، اللذَينِ سيرثانِهِ، ولذا يفترضُ بِهما أنْ لا يَعِيباها عليهِ، وأنْ يَتَرَيَّثا قليلاً في سعيِهِما إلى السَّرير. لذلكَ فأنا لا أؤمِنُ بالشَّخصيّاتِ المسرحيَّةِ البسيطة. أمّا أحكامُ المؤلِّفِ التلخيصيَّةُ على البَشَر: فإنَّها لَحمقاءُ، وإنَّها لَغاشِمةٌ، وإنَّها لَغَيورةٌ، وإنَّها لَبخيلةٌ... إلخ، واستهجانُها لِزامٌ على الطَّبيعيِّينَ، الذينَ يُدرِكونَ مدى غِنى نسيجِ النَّفس البشريةِ، ويشعرونَ بأنَّ لِـ «وِزرٍ» وَجهاً آخَرَ أشبَهَ ما يكونُ بالظُّهر.

كشخصياتٍ حديثةٍ، تحيا في فترةٍ انتقاليّةٍ هستيريّةِ العُجالةِ أكثرَ من سابقاتِها على الأقل، فَقَدْ صَوَّرتُ شُخوصي لتكونَ أكثرَ تَذَبْذُباً، مُتَفَكِّكَةً، يختلطُ فيها القديمُ والجديد، ويبدو لي أمراً مُستَبْعَداً أن تكونَ الأفكارُ الحديثةُ التي تتواترُ في الصُّحُفِ والمُحاوراتِ قَدْ تَسَرَّبَتْ إلى تلكَ الطّبقاتِ التي قد يعيشُ فيها أحد الخَدَم.

نُفوسيَ تِلك (شخصيّاتي) هيَ تَكتُلاتٌ من درجاتٍ ثقافيةٍ سابقةٍ وحاليّةٍ، أجزاءٌ مِنَ كُتُبٍ وَصُحُفٍ، قِطَعٌ مِنْ بَشَر، مِزَقٌ انتزعتُها مِنْ ثيابِ عيدٍ أضحَتْ خِرَقاً، مطويةٌ تماماً كما تُطوى النّفس. وعدا ذلكَ فَقَدْ أعطَيتُ نُبذَةً عنْ سِيَرِها، وعندما أدَعُ الأضعَفَ منها يستَرِقُ وَيُرَدِّدُ كلماتٍ يقولها الأقوى، أدَعُ النّفوسَ تستَحضِرُ «أفكاراً»، أو اقتراحاتٍ كما تُسَمّى، مِنْ بَعضِها بعضاً.

الآنسةُ جولي شخصيّةٌ حديثة، لا كما لو أنّ النصفَ امرأةٍ، كارِهَةَ الرّجالِ، لَمْ تُوجَدْ عبْرَ العصورِ كُلِّها، بلْ لأنّها الآنَ قَدْ تَمَّ اكتشافُها، قَدْ بَرَزَتْ وأُحدِثَتْ ضَجيجاً. النِّصفُ امرأةٍ هي نوعٌ يتزاحمُ قُدُماً، كما وباتَ يبيعُ نَفسَهُ مُقابلَ السُّلطةِ، يُنَظِّمُ الجوائزَ والشّهادات، مثلما تَمَّ ذلكَ سابِقاً مُقابلَ المالِ، ويَقترِحُ الشُّذوذ. ليسَ نوعاً صالِحاً، لأنّهُ ليسَ كائناً أصيلاً، إنّما يتكاثَرُ مَعَ تعاسَتِهِ لِلأسفِ. ويبدو أنَّ الشّواذَّ مِنَ الرجالِ يتَخَيّرونَ منهُ عنْ لاوعيٍ، فإذا بِهِ يتناسَلُ، مُوَلِّداً جِنساً مُبهَماً، يتعذّبُ في الحياةِ، ولكنّهُ ولِحُسنِ الحَظِّ يَهلَك، إمّا لِعَدَمِ تناغُمِهِ مَعَ الواقِعِ أو بِسَببِ اندِفاعِ غيرِ مَلْجُومٍ للغريزةِ المكبوتةِ، أو بسببِ تَحَطُّمِ آمالِهِ في بُلوغِ الرَّجُل. هذا النّوعُ مأساويٌّ، يَعرض تمثيليةً مِن كفاحٍ يائسٍ ضِدَّ الطبيعة، مأساويٌّ كإرثٍ رومانسيٍّ اختَلَسَهُ المذهبُ الطّبيعيّ، الذي يصبو إلى النّجاحِ، والنّجاحُ حليفُ الأنواعِ الصالِحَةِ والقويّة.

ولكنَّ الآنسةَ جولي كذلك مِن بقايا صِنفِ النُّبَلاءِ المُحاربينَ القديمِ، الذي يتنَحّى الآنَ من أجلِ نُبَلاءِ العَصَبِ الجُدُدِ أو نبلاء العقلِ الكبار: ضحيّةٌ لانعدامِ التناغُمِ الذي استَجلَبَتْهُ «جريمةٌ» أُمٌّ لعائلَتِها: ضحيّةٌ لضلالاتِ عصرٍ بِعَينِه، للظروفِ، لِتكوينِها الشّخصيّ الناقِصِ، تلك الأمور التي عادَلَت بالمُجمَلِ كَفّةَ ذلكَ المصيرِ العتيقِ الطّراز أو ذلكَ القانونِ الكونيّ. أمّا الإثمُ، فَلَقَدْ مَحاهُ الطّبيعيُّ(5) بالرَّبِّ، وأمّا عواقِبُ الفِعْلِ، العِقابُ، السِّجنُ، أو الخوفُ منه، فليسَتْ مما يمكنُهُ مَحوُهُ، لسبَبٍ بسيطٍ هوَ أنّها

باقِية، إمّا أنْ يُطلِقَ سَراحَها أو لا، إذ أنّ المحرومينَ لا يتساهلونَ كغيرِ المحرومينَ الذينَ لا يَخُصُّهم الأمرُ، الذينَ يُمكِنُهم ذلكَ مُقابلَ ثَمَنٍ مُجزٍ. حتّى وإنْ كانَ الأبُ، ولأسبابٍ قاهِرَةٍ، قَدْ ألغى الانتقامَ، فإنّ الابنَةَ كانت ستَنتَقِمُ من نفسِها مثلما تفعلُ هُنا، بسببِ هذا الشعورِ الخَلْقِيِّ أو المُكتَسَبِ بالشَّرَفِ الذي يرِثُهُ أبناء الطبقاتِ العُليا - مِنْ أينَ؟ مِنَ البَرْبَريّة، مِن الدّارِ الآريّةِ الأولى، مِنَ فروسيّةِ العصورِ الوسطى، وهيَ الجميلةُ حقّاً إلّا أنّها ما عادَتْ ذاتَ نَفعٍ لدوامِ هذا النّوع. إنّهُ هاراكيري النّبلاء، قانونُ الضميرِ الداخليّ لليابانيّ، الذي يدعوهُ إلى شَقِّ بَطنِهِ، عندَما يُخزيهِ أحَدُهُم، وهو ما لَمْ يَزَلْ قائماً، معَ التّحويرِ، في المُبارَزةِ؛ امتيازِ النّبلاء. لذلكَ يعيشُ الخادِمُ جان، لكنّ الآنسةَ جولي لا يسعُها العيشُ دونَ شَرَف. هُو سَبَقُ المملوكِ على الحُرِّ أنْ يعوزَهُ جَوزُ الشَّرَفِ المُهلِكُ هذا، وإنّ فينا جميعاً، نحنُ الآريينَ، شيءٌ مِنْ ذلكَ النّبيلِ أو دون كيخوته، الأمرُ الذي يَجعلُنا نتعاطَفُ مَعَ المُنتَحِرِ الذي قامَ بِفِعلٍ لا شرَفَ فيهِ فَفَقَدَ بذلكَ شَرَفَهُ، وإننا نُبلاءُ حقّاً ما تألّمنا لرؤيةِ وجيهٍ ساقِطٍ وقد غدا جُثّةً مُلقاةً كالقمامةِ، بلى حتّى وإنْ نَهَضَ ذلكَ السّاقِطُ لِيُعَوِّضَ عبرَ أفعالٍ مُشرِّفة. الخادِمُ جان هو مُؤَسِّسُ نوعٍ مِمَّنْ يمكنُ أنْ يُلاحَظَ التفاضُلُ فيهِ. كانَ ابنَ مُستَخدَمٍ وها قَدْ تَعَلَّمَ كي يصيرَ مِنَ السّادة. كانَ نجيباً في تعليمِهِ، أحْسَنَ تطويرَ حواسِّهِ (الشمِّ والتذوُّقِ والبَصَرِ) وكذا حاسّةِ تمييزِ الجمال. واقفٌ على قَدَمَيهِ بالفعلِ، وقويٌّ بما يكفي لئلّا تَجرَحَهُ المواظبةُ على خِدمَةِ الآخرينَ. وقد تَمَّ فيهِ اغترابُهُ عن مُحيطِهِ الذي يَحتَقِرُ إلى حَدِّ التّبَرُّءِ مِنهُ، يخشاهُ ويهربُ منهُ، فَناسُهُ يعرفونَ أسرارَهُ، ويَستَجلونَ نواياهُ، بِحَسَدٍ ينظُرونَ إلى ارتِقائهِ، وبِحُبورٍ يرقبونَ سقوطَهُ. تلكَ عِلّةُ شخصيَّتِهِ الحائرةِ، المُزدَوَجَةِ، المُتذَبذِبَةِ بينَ المَيلِ إلى ما هو فوَق وبينَ كراهيةِ مَنْ هُمْ فَوق. إنّهُ أرستقراطِيٌّ، كما يقولُ بِنَفسِهِ، تَعَلَّمَ أسرارَ مُجتَمَعِ الأشرافِ، مُهَذَّبٌ، ولكنّهُ غليظُ الدّواخِلِ، تراهُ يرتدي المعاطِفَ بأُبّهةٍ، دونَ أيِّ ضمانةٍ بنظافَةِ جسمِهِ تحتها.

يحترمُ الآنِسَةَ، لكنّهُ يَخشى كريستينَ حيثُ أخطَرُ أسرارِهِ في مُتناوَلِ يَدَيها؛ وهو عديمُ المشاعرِ بما يكفي لئلّا تُخرّبَ حوادِثُ الليلةِ خُطَطَهُ المستقبَليّةَ. بِفظاظةِ العَبيدِ وبِنَدرَةِ النّزفِ لدى السّادةِ يمكنُهُ أنْ يرى الدّمَ دونَ أنْ يَجأرَ، وأنْ يقبضَ على عُنُقِ الرِّزيّةِ فَيُلقِيَ بِها خلفَ ظَهرِهِ. لِذا فهو يَخرُجُ مِنَ المَعرَكةِ سالِماً لتنتهي بِهِ الحالُ على

الأغلبِ مديراً لِفُندق، وإنْ هُوَ لم يصبِح كونتاً رومانياً، فسيصبِحُ ابنهُ على الأرجَحِ طالِباً ثُمّ مأمورَ ضرائب.

عدا عن ذلكَ فهو يمنحنا معلوماتٍ غايةً في الأهمّيةِ عن مفهومِ الحياةِ لدى الطّبقاتِ الدنيا، كما تراها مِنَ الأسفَلِ، وذلكَ عندما يتكلّمُ بِصِدْقٍ حصراً، الأمر الذي ليسَ مِنْ عادَتِهِ أن يفعلَهُ، إذْ أنَّهُ يقولُ ما ينفعهُ أكثرَ مما هو حق. حينَ ترمي الآنسةُ جولي افتراضَها بأنَّ الجميعَ في الطبقاتِ الدُّنيا يحسونَ بِثِقَلِ الضَّغطِ الآتي من الأعلى، فإنَّ جان يُوافِقُها طَبْعاً، لأنَّ قَصدَهُ هو الفوزُ بالتعاطُفِ، ولكِنَّهُ يُعَدِّلُ مَنطِقَهُ بُعَيدَ ذلكَ، حينَ يُدرِكُ النَّفعَ في تمييزِ نفسِهِ عَنْ جموعِهِم.

عدا عن كَونِ جان في تلكَ اللحظةِ شَخصاً في حالِ صعودٍ، فهوَ يتَفَوَّقُ على الآنسةِ جولي في كونِهِ رَجُلاً. جنسيّاً، هو الأرستقراطيُّ بقُوَّةِ رجولَتِهِ، وحواسِّهِ التي أحسَنَ تَطويرَها، وبِقُدرَتِهِ على المُبادَرَةِ. فَدونِيَّتُهُ تَتبَلْوَرُ غالِباً في البيئةِ الاجتماعيةِ المؤقَّتةِ التي يعيش فيها والتي بإمكانِهِ، على الأرجَحِ، نَضْوُها عن نفسِهِ مَعَ سُتْرَةِ الخادِمِ.

أما حاسّةُ العبوديَّةِ فتُعَبِّرُ عن نَفسِها في تقديسِهِ للكونت (حذاء الفروسية)، وفي تَطَيُّرِهِ الدّينيّ. ولكنَّهُ يُقَدِّسُ الكونتَ باعتبارِهِ صاحبَ المكانِ العَلِيِّ الذي يسعى إليهِ، ويَظَلُّ هذا التَّقديسُ راسِخاً، حتّى بعدَ أن يُخضِعَ ابنَةَ الكونت وَيَرى كم كانت تلكَ القشرَةُ الجميلةُ عَدَمِيَّةً.

لا أعتَقِدُ أنَّ علاقَةَ حُبٍّ بالمعنى «السّامِي» يُمكنُ أنْ تَنشأَ بينَ نَفسَينِ مُختَلِفَتَي التَّكوينِ إلى هذا الحدِّ، ولِذا جعلتُ الآنسةَ جولي تُمْلي حُبَّها كما لو كانَ واقِياً أو مُبَرِّراً، وجعلتُ جان يَظُنُّ أنَّ بإمكانِ حُبٍّ كَحُبِّهِ أن ينشأ تَحتَ ظُروفِ اجتماعِيَّةٍ أخرى له. أرى أنَّ الحُبَّ كالمُكَحْلَةِ(6) التي يجبُ أن تَضرِبَ بِجذورِها في العَتَمَةِ قَبلَ أن يكونَ بِمُستَطاعِها إطلاقُ زَهرَةٍ قَويّة. هنا تَشرَئِبُ وَتُزهِرُ وتحملُ بَذرَها فَوراً، ولهذا يموتُ النّبتُ سريعاً.

أمّا كريستين، ختاماً، فَأَمَةٌ مِلؤها التَّبَعِيَّةُ والبلادَةُ، مُكَرَّسَةٌ للوقوفِ أمامَ المَوقِدِ، مُتْرَعَةٌ بالأخلاقِيّاتِ والدِّينِ لتتَّخِذَ منهما سُدُلاً وأكباشَ فِداءٍ. تَرتادُ الكنيسةَ لِتُلقِيَ عَنها إلى كاهِلِ المسيحِ سَرِقاتِها المنزِلِيَّةَ وتزْدَرِدَ شحنةً جديدةً مِنَ البراءة. عدا ذلكَ

فهي شخصٌ ثانويٌ، وَلِذا فَهيَ مُقتَضَبَةٌ عَنْ قَصْدٍ كما فَعَلْتُ معَ القسِّ والطَّبيبِ في **«الأب»** لأنني أردتُ وُجودَ شخصيّاتِ الحياةِ اليوميّةِ، أولئكَ الذينَ يُمَثِّلُهم القسُّ القَرَويُّ وطَبيبُ النّاحيةِ خيرَ تمثيل. أمّا أنْ يرى البَعضُ أنَّ شُخوصيَ الثّانويّةَ هذهِ تَجريديّةٌ، فمَرَدُّهُ إلى أنَّ شخصيّاتِ الحياةِ اليوميّةِ هي إلى حَدٍّ ما تجريديّةٌ في تأديةِ مهامِّ حِرَفِها، أيْ أنَّها بكلمةٍ أخرى تابِعَةٌ، لا تُظْهِرُ سوى جانبٍ واحِدٍ في سلوكِها المِهَنِيِّ، وطالَما كانَ المُتَفَرِّجُ لا يَشعُرُ بحاجةٍ إلى رُؤيَتِها مِن جوانِبَ متعدِّدَةٍ، فإنَّ رَسميَ التَّجريدِيَّ لشخصيّاتِها صائب.

في ما يخصُّ الحِوارَ، خِتاماً، فَقَدْ كَسَرتُ التقليدَ المُتَّبَعَ بَعضَ الشّيء، وذلكَ بأنني لَمْ أجْعَلْ مِنْ أشخاصيَ شَخصيّاتٍ تجلِسُ وتسألُ بِغباءٍ لاستِنباطِ رَدٍّ حاذق. ولَقَدْ تَجَنَّبتُ التَّماثُلِيَّةَ والحِسابِيَّةَ الموجودةَ في الحوارِ الفرنسيِّ المُفْتَعَلِ وتركتُ العقولَ تَعمَلُ بَتَفاوُتٍ، كما تَفعَلُ في الواقِعِ، حيثُ ما مِنْ مَوضوعٍ يتمُّ إفراغُهُ تماماً في محاورةٍ، إنَّما يلتقِطُ أحَدُ العقلينِ من الآخرِ نتوءاً يتعلَّقُ بِهِ. ولِذا يشرُدُ الحوارُ أيضاً، يُمَهِّدُ لِنَفسِهِ في المشاهِدِ الأولى بمادَّةٍ تتِمُّ لاحِقاً مُعالَجَتُها، وتَناوُلُها، وتكرارُها، وَطَيُّها، وبَسطُها، كما في موضوعٍ مُؤَلِّفٍ مُوسيقِيّ.

الحَدَثُ مُثقَلٌ بما يكفي، وباعتبارِهِ يمَسُّ شخصَينِ وَحَسبُ، فقد التَزَمتُ بذلك، فَلَمْ أضِفْ إليهما سوى شخصٍ ثانويٍّ، الطاهية، بينَما تَرَكتُ روحَ الأبِ المنكودةَ تحومُ فوقَ المكانِ في خلفيّةِ الأحداثِ كلِّها. ذلكَ حيثُ وجدتُ نفسيَ ألاحِظُ أنَّ المسارَ النَّفسيَّ هو أكثرُ ما يثيرُ اهتمامَ أبناءَ العصرِ الأحدَثِ، وأنَّ نُفوسَنا الفُضوليَّةَ لا تَقنَعُ برؤيةِ شيءٍ ما يَحْدُثُ دونَ مَعرِفَةِ كيفيَّةِ حدوثِهِ! فنحنُ نريدُ تحديداً رؤيةَ الخيوطِ، رؤيةَ الآلِيَّةِ، وفَحصَ العلبةِ المزدَوَجَةِ القاعِ، وارتداءَ الخاتمِ السِّحريِّ لإيجادِ عقدةٍ ما، والتَّبَصُّرَ في ورقِ اللعبِ لاكتشافِ تصنيفِها.

وفي هذا السِّياقِ فَقَدْ لَفَتَتْ نَظَري رواياتُ الأخَوينِ **غونكور** المونوغرافيّة(7)، التي راقَتْ لي أكثرَ من سواها في الأدَبِ المُعاصِر.

في ما يخصُّ التقنيَّ في التوليفِ، فقد حذفتُ على سبيلِ التجربةِ تقسيمَ الفَصلِ المسرحيِّ. وذلكَ لأنني وَجَدتُ أنَّ قُدرَتَنا على أنْ نُؤخَذَ بالوَهمِ قَدْ تتأثَّرُ بالفَواصِلِ،

التي ينالُ المتفرّجُ أثناءَها وَقتاً للتأمُّلِ فَيعزِلَ عبرَ ذلك عَنْ سطوةِ إيحاءِ المؤلّف - المُنَوِّمِ المِغناطيسيّ. أظنُّ مسرحيّتي هذه تستغرقُ ستّةَ أرباعِ الساعة، وإذا كانَ بإمكانِ المرءِ الاستماعُ إلى مُحاضَرةٍ أو موعِظَةٍ أو جلسةِ استماعٍ في الكونغرس لمدةٍ بالطُّولِ نَفسِهِ أو أطولَ، فَلَقَدْ تَخَيَّلْتُ أنّ عرضاً مسرحيّاً لَن يُتعِبَ أحداً في ساعةٍ ونصف. سبَقَ لي عامَ ١٨٧٢ وفي واحدةٍ من أولى مُحاولاتيَ المسرحيةِ، **«الخارِجُ عَنِ القانون»**(8)، أن جَرَّبتُ هذا الشَّكلَ المُرَكَّزَ، وإنْ كانَ ذلك بنَزْرٍ من النّجاح. كانت المسرحيةُ مكتوبةً وتامّةً في خمسةِ فصولٍ، حينَ انتَبَهتُ إلى تأثيرِها القَلِقِ المُمَزِّقِ. أُحرِقَتْ، وَمِنْ رَمادِها خَرَجَ فَصلٌ وحيدٌ، كبيرٌ ومشغولٌ بعنايةٍ، مِن حوالَي خمسينَ صفحةً طباعيةً، استغرَقَ عَرضُهُ ساعةً كاملةً. لذا فالشَّكلُ ليسَ جديداً، ولكنّهُ يبدو مِمّا يَخُصُّني ولَعَلَّهُ، من خلالِ تَغَيُّرِ قوانينِ الذّائقةِ، يبدو مُعاصِراً. - مُرادي هو الحصولُ من الآنَ فَصاعِداً على جمهورٍ بلغَتْ ثقافَتُهُ الحدَّ الذي يُمَكِّنُهُ من الجلوسِ لمشاهدةِ عَرضٍ مسرحيٍّ كاملٍ في فصلٍ واحد. لكنَّ ذلكَ يَتَطَلَّبُ الفحوصَ أوَّلاً. - ولِكَي أُهيِّئَ، على أيةِ حالٍ، للجمهورِ والممثلينَ نقاطَ استراحةٍ دونَ إفلاتِ الجمهورِ مِن قَبضَةِ الوَهم، فَقَدْ اتَّخَذتُ ثلاثةَ أشكالٍ فنّيّةٍ، تنتمي جميعاً إلى الفعلِ الدراميّ: وأعني المونولوجَ والپانتومايمَ والباليه، المرتبطةَ أصلاً بمآسي المسرح الإغريقي، حيثُ المونودي(9) صارتْ مونولوجاً، والجَوقَةُ أصبَحَت باليه.

إنَّ المونولوجَ مَحظورٌ مِنْ قِبَلِ واقِعِيِّينا باعتبارِهِ أمراً مُستَبعَدَ الحدوث، ولكنّني إنْ بَرَّرتُهُ، جعلتُهُ أمراً وارِدَ الحدوث، وبِذا أستطيعُ استخدامَه ليكونَ ميزةً. إنَّ مِمّا هو وارِدُ الحدوثِ حقّاً أن يسيرَ خطيبٌ ما وحدَهُ في مخدَعِهِ فَيَقرَأُ خطابَهُ بصوتٍ عالٍ، ومِنَ الوارِدِ أن يُذاكِرَ ممثلٌ دورَهُ بصوتٍ عالٍ، وأن تُحَدِّثَ خادِمَةٌ قِطَّتَها، وأنْ تُحاكيَ أمٌّ طِفلَها، وأنْ تُثَرثِرَ عجوزٌ مَعَ ببغائها، وأنْ يتكلّمَ نائمٌ في نومِهِ. وَلِمَنحِ المُمَثِّلِ فُرصَةً لعَمَلٍ مُستَقِلٍّ وأن يكونَ حُرّاً لِلَحظةٍ مِن عَصا إشارَةِ المؤلِّف فَالأفضَلُ أن لا تُؤَدّى المونولوجات، بل أنْ تُقَدَّرَ وَحَسْب. إذ لأنَّهُ سِيّانَ ما يُقالُ في النَّومِ، أو للببغاءِ أو للقطّةِ، وطالَما ليسَ لذلكَ تأثيرٌ على الحدثِ، فبإمكانِ ممثّلٍ موهوبٍ، حاضرٍ في قلبِ الحالةِ وَجَوِّها، أنْ يرتَجِلَ ذلكَ رُبّما أفضلَ منَ المؤلِّف الذي ليسَ بمقدورِهِ مُسبَقاً حسابُ كَمِّ الكلامِ الذي يَتِمُّ قولُهُ، ولا حسابُ طولِ مُدَّتِهِ، قبلَ أن يستَفيقَ الجمهورُ

من الوَهم.

كما هو معروفٌ فقد عادَ المسرَحُ الإيطاليُ، في صالاتِ عَرْضٍ مُعَيَّنَةٍ، إلى الارتِجالِ، وخلَقَ بذلكَ مُمَثِّلِينَ مُتَصَرِّفينَ، إنَّما تبعاً لخططِ المؤلِّفِ، الأمر الذي يمكنُ أن يكونَ تَقَدُّماً أو نوعاً حديثَ النُّمُوِّ من الفَنِّ، حيثُ يمكنُ الحديثُ عن الفَنِّ ***الخلّاق***.

وحيثُ كانَ المونولوجُ مُستَبْعَدَ الحُدوثِ، تَشَبَّثتُ بالپانتومايم. وهناكَ أترُكُ للممثِّلِ حُرِّيَّةً أكبَرَ للتَّصَرُّفِ - والفوزِ بشرَفٍ مُستَقِلّ. كذلكَ، ولئلّا أُحَمِّلَ الجمهورَ ما لا يُطيقُ، فَإنني أتركُ الموسيقى، على أنَّها مُبَرَّرَةٌ للغايةِ برَقصٍ مُنتَصَفِ الصَّيفِ، تُمارِسُ سُلْطَتَها الإيهاميَّةَ أثناءَ التمثيليةِ الصّامتة، وأسألُ قائدَ الفرقةِ الموسيقيةِ أن يستَفتيَ قَلبَهُ في اختيارِ المقطوعاتِ الموسيقيَّةِ، لئلّا تُوقِظَ مِزاجاً مُغايِراً عبرَ الذاكرةِ، سواءٌ أكانَ ذلكَ مِنْ أُوپِرِتّاتِ هذه الأيامِ أو المؤَلَّفاتِ الرّاقصةِ أو الموسيقى الشعبيَّةِ ذاتِ الإثنوغرافيَّةِ(10) العارِمة.

لَم يَكُن الباليه الذي ضَمَّنتُهُ قابِلاً للإبدالِ بما يُسَمّى بالمشهدِ الشعبيّ، لأنَّ المَشاهِدَ الشَّعبِيَّةَ رديئةُ التمثيلِ ولأنَّ العديدَ مِنَ المُتَبَرِّمِينَ يريدونَ استغلالَ الفرصةِ كي يُظهِروا عبقريّاتِهِمْ وبذلكَ يُفسدونَ الوَهمَ. وكما أنَّ النّاسَ لا يرتَجِلونَ لُؤمَهُمْ، وإنَّما يستعملونَ لذلكَ مادَّةً جاهِزَةً مُسبَقاً، بحيثُ تكونُ هناكَ تَورِيَة، فإنَّني لَم أمْلِ النّيذِڤيسا(11)، بَل أخذتُ أغنيَةً شعبيَّةً راقِصَةً غيرَ مشهورةٍ، كنتُ دَوَّنتُها بِنَفسي لدى سماعِها في أحدِ أحياءِ ستوكهولم. يُصيبُ كلامُها المَعنى تقريباً، لا على وجهِ الدِّقةِ، ولكنَّ ذلكَ في حدِّ ذاتِهِ مقصودٌ، حيثُ أنَّ الجُبنَ (الضَّعفَ) لدى العَبْدِ لا يسمَحُ بالهُجومِ المُباشِر. أيْ لا دُعابَاتٍ ذاتَ مغزى أثناءَ حَدَثٍ جادٍّ، ولا ابتساماتٍ فَظَّةٌ ونعشُ أحد الأقاربِ يوشِكُ أنْ يُغلَق.

في ما يخُصُّ الديكوراتِ، فَقَد استعَرْتُ مِنَ الرسومِ الانطباعيَّةِ اللاتَّطابُقَ، والاقتِطاعَ، وأُظنُّني بذلكَ قَد رَبِحتُ خَلْقَ الوَهم: فَمِنْ خِلالِ عَدَمِ رُؤيَةِ ما في المَكانِ كُلِّهِ، أو التأثيثِ كُلِّهِ، تُترَكُ فُرصَةٌ للتخَيُّلِ، أيْ أنَّ الخيالَ يُحَرِّكُ لِيُكمِلَ النّقص. كما أنني ربحتُ أمراً آخرَ، هُوَ أنني تخلَّصتُ من تلكَ الخروجاتِ المُمِلَّةِ عبرَ الأبوابِ، فأغلَبُ الأبوابِ المسرحيةِ مِنَ القِماشِ وهي تَتَأَرجَحُ عندَ اللمسِ الخفيفِ، وليسَ لَها أيَّةُ قُدرَةٍ

على مَنحِ أبٍ حانِقٍ إمكانِيّةَ التّعبيرِ عَنْ غضبِهِ، حينَ يَخرُجُ بعدَ عشاءٍ بائسٍ ويصفِقُ البابَ خَلفَهُ «بحيثُ يهتزُّ المَنزِلُ بأكمَلِه» (في المسرَحِ يتأرجَحُ بأكمَلِه). كذلكَ فَقَدْ التَزمتُ بِديكورٍ واحدٍ، لِسَبَبَينِ أوّلُهما جعلُ شُخوصيَ يَنمُونَ معَ البيئةِ، وثانيهُما فَكُّ الارتِباطِ بتَرَفِ الدّيكور. لكنّ بإمكانِ المَرءِ، عندَما يتَّخِذُ ديكوراً واحداً فَقَط، المطالبَةَ بجَعلِهِ شِبهَ واقِعِيّ. على أنَّ ما مِنْ شَيءٍ أصعبُ مِنَ الحصولِ على مكانٍ يَبدو تَقريباً مِثلَ مكانٍ ما، مهما بَلَغَ اليُسرُ لدى الرَّسّامِ في رَسمِ جبلٍ يرمي الحمَمَ أو شلّالٍ يهدر. فَلْيَكُنْ أنَّ الجدرانَ مِنْ قِماشٍ، ولكنَّ رَسمَ الرُّفوفِ وحاجياتِ المَطبَخِ على القِماشِ أمرٌ قد حانَ وقتُ الكَفِّ عَنه. لدَينا الكثيرُ مما هو اتِّفاقِيٌّ على خشَبةِ المسرحِ، مما يتوَجّبُ علينا تَصديقُهُ، بحيثُ يمكننا أن نرفِقَ بأنفُسِنا مِن إجهادِها بتصديقِ قُدُورٍ مَرسومة.

لقد اختَرتُ إمالَةَ الخلفيّةِ والطاولةِ كي يؤدّي الممثلونَ أدوارَهَم بحيث يواجِهُ أحدُهم الجمهورَ بينما الآخرُ في وضعٍ جانبيٍّ، عندَ الجلوسِ إلى الطاولةِ بَعضُهُم قُبالَةَ بعض. في أوبرا **عايدة** رأيتُ خلفيَّةً مائلةً كانت تقودُ العينَ في منظورٍ مجهولٍ، ولَم تَبدُ نابعةً من روحِ تناقُضِ الخطِّ المستقيمِ المُتعِب.

لَعَلَّ تجديداً آخرَ قَدْ لا يكونُ غيرَ ضروريٍّ وهو التَّخَلّي عن أضواءِ الرّامپ(12). فمن مَهامِّ هذه الإضاءة السُّفلِيةِ جعلُ الممثّلينَ أسمَنَ وجوهاً. ولكنّني أوَدُّ السؤالَ: لِماذا يجبُ أن يَظهَرَ الممثلونَ جميعاً أسمَنَ وجوهاً؟ ألا تَمحَقُ هذه الإضاءةُ السُّفلِيّةُ كمّاً لا بأسَ بِهِ مِن الملامِحِ الجميلةِ في نصفِ الوَجهِ السُّفلِيّ، وفي الفَكَّينِ تَحديداً؟ ألا تُزَوِّرُ شَكلَ الأنفِ، وتَرمي ظِلالاً على العينِ؟ إنْ لَمْ يَكُ كذلكَ، فإن سوى ذلكَ أكيد: أنَّ عيني المُمَثِّلِ تُعَذَّبانِ، فَنَخسَرَ اللعبَ الفَعّالَ للنَّظَراتِ، إذْ أنَّ هذه الإضاءةَ تُصيبُ شبَكِيَّةَ العينِ في مواضِعَ تكونُ عدا ذلكَ محمِيَّةً (ما خلا لدى البَحّارةِ، الذينَ يضطرّونَ للنَّظَرِ إلى انعكاسِ الشمسِ على الماء)، ولذلكَ نَدَرَ أن يشاهدَ المرءُ تمثيلاً بالنَّظَراتِ سوى التّحديقِ الحادّ إمّا إلى الجانِبِ، أو إلى أعلى صفوفِ الصالةِ حيثُ يَظهَرُ للجمهورِ بياضُ عينِ الممثل. ولعلَّ بإمكانِ المرءِ أن يرى في ذلكَ تعليلاً للارتعاش المُمِلّ لأجفانِ عيونِ الممثلاتِ تحديداً. وعندما يريدُ أحدهم أن يتكلّمَ بِعَينَيهِ، فليسَ أمامَهُ سوى تخريجٍ رديءٍ وحيدٍ وهو النَّظَرُ المباشرُ نَحوَ الجمهورِ، الأمرُ

الذي يُجبِرُهُ أو يُجبِرُها على تواصُلٍ مُباشرٍ خارجَ إطارِ الستارة، ويا لها من فوضى يُطلَقُ عليها، خطأً أو صواباً، أنْ «تُسَلِّمَ على المعارِف!».

أَفَلَيسَ بإمكانِ إضاءةٍ جانِبيّةٍ (مِنْ عواكِسَ أو ما إلَيها) قويّةٍ بما فيهِ الكفايةُ أن تَمنَحَ المُمَثِّلَ هذا المَوردَ الجديدَ: تعزيزَ المحاكاةِ بأعظمِ ما تملكه الوجوه: لعبة العيون؟

لا أوهامَ لديَّ عن جَعلِ المُمَثِّلِ يَلعَبُ الدّورَ للجمهورِ وَلَيسَ مَعَه، على أنَّ ذلكَ في عِدادِ الأماني. لا أحلُمُ بِرُؤيَةِ كامِلِ ظَهرِ مُمَثِّلٍ طَوالَ مَشهَدٍ مُهِمٍّ، ولكنني أتمنى بحَماسَةٍ أن لا تُؤَدّى المشاهِدُ الحاسمةُ عندَ فَجوَةِ المُلَقِّنِ بِهَيئَةِ دويتّوات غايتُها تصفيق الجمهور، بل إنني أريدُ أنْ تُؤَدّى في الأماكِنِ التي تتطلّبُها المواقِفُ. أيْ لا ثوراتٍ وإنَّما تَعديلات صغيرةٌ فقط، إذْ أنَّ تحويلَ خشَبَةِ المسرحِ إلى غرفةٍ يغيبُ فيها الجدارُ الرابعُ، وكذا أن يُعطيَ جزءٌ من الأثاثِ ظَهرَهُ للصّالةِ، لَهُوَ ممّا يبدو على الأرجَحِ مُزعِجاً الآنَ، وإلى أجَلٍ غيرِ مُسَمّى.

وعندَما أريدُ الحديثَ عن الماكياج، فلا أجرُؤُ على تَمَنّي أن تَسمَعني السَّيِّدات، اللواتي يُفَضِّلنَ أنْ يَكُنَّ جميلاتٍ على أنْ يَكُنَّ واقِعِيّات. لكنَّ بمقدورِ المُمَثِّلِ طَبعاً أنْ يُفَكِّرَ فيما إذا كانَ مُجدِياً لَهُ وضعُ شخصيَّةٍ مَجازِيَّةٍ على وَجهِهِ بالماكياج، وكأنَّهُ بذلكَ يرتدي قِناعاً. فَلنَتَخَيَّل سيِّداً يحاوِلُ بِالسُّخامِ رسمَ تَعبيرِ حانِقٍ حادٍّ بينَ عينيهِ، وَلنَفتَرِض أنَّهُ على ثباتِ ذلكَ التعبيرِ يحتاجُ أنْ يبتَسِمَ عندَ حوارٍ ما. أيُّ تَجَهُّمٍ مُريعٍ سَيَنتُجُ عن ذلك؟ وكيفَ يمكن لِتِلكَ الجَبهَةِ، الملساءِ مِثلَ كُرَةِ بليارد، أنْ تَتَجَعَّدَ حينَ يغضَبُ ذلكَ العجوزُ؟

لعلَّ أوجَبَ ما يمكنُ أن يكونَ في الدراما النَّفسيّةِ الحديثةِ، حيثُ تنعكسُ أدَقُّ حركاتِ النَّفسِ عبرَ الوَجهِ أكثرَ مما تَفعَلُ عبرَ التلويحِ والصَّخَبِ، هو المحاولةُ بإضاءةٍ جانِبيّةٍ قويّةٍ على خشباتِ المسارحِ الصغيرةِ وبممثلينَ دونَ ماكياج، أو على الأقلِّ بأدنى قَدرٍ ممكنٍ من هذا الأخير.

لو أنَّ بإمكاننا التَّخلُّصَ من الأوركسترا المرئيةِ معَ وَهَجِ مصابيحِ إضاءتِها المزعجةِ ووجوهِ أعضائها التي تُقابِلُ الجمهورَ، لارتَفَعَت أرضيّةُ الصالة بحيثُ يكونُ مستوى

نَظَرِ المُتفرِّجِ أعلى من طَيَّةِ رُكبةِ الممثل. لو يَتَحَقَّقُ لنا أن نُزيلَ الخَشباتِ المسرَحِيَّةَ الطَّلِيعِيَّةَ (عيون الثيران(13)) بِمَنْ يأتيها مِنْ طُلّابِ العشاءاتِ البشوشينَ وصاحباتِ النِّيافة، إضافةً إلى التعتيمِ التّامّ في الصالة عندَ التّقديمِ، وكذلكَ وقبلَ وبَعدَ كُلِّ شيءٍ *خشبةٌ مسرحيةٌ صغيرة وصالةٌ صغيرة*(14)، لرُبّما تولَدُ لدينا دراما جديدة، ومسرحٌ يعودُ ليصبحَ مؤسّسَةً لمتعةِ المُثقّفِين. وأثناءَ انتظارِ هذا المسرَحِ، علينا أنْ نكتُبَ ونكتُبَ ونُهَيِّئَ الذّخيرةَ الفنيّةَ التي سيأتي وقتُها.

لَقَدْ قُمتُ بِمُحاولة! إنْ أخْفَقتُ، فللزَمَنِ حَتماً أنْ يُعيدَها!


تليجرام
هنا
سور الأزبكية

الأشخاص

الآنسة جولي، ٢٥ عاماً.

جان، خادم، ٣٠ عاماً.

كْريستين، طاهية، ٣٥ عاماً.

تدور الأحداث في مطبخ منزل الكونت، ليلةً منتصف الصيف.



المَنظَر

مطبخٌ كبير، تُخَبِّئ سقفَهُ وجُدرانَهُ ستائرُ وقِطَعُ قماش. تنسحب الخلفية مائلةً إلى عُمق وأعلى المنظرِ من اليسار؛ وعلى يسارِ تلك الخلفيّةِ نفسِها رفّان لأوعيةٍ نحاسيةٍ، وحجَرِيّةٍ، وحديديّةٍ وأخرى من الصَّفيح.

يُزَيِّنُ الرَّفّينِ ورَقٌ منقوش، وإلى اليمين قليلاً يظهرُ ثلاثةُ أرباع المخرَجِ المُقَوَّس ذي البابينِ الزُّجاجِيّينِ اللذَينِ تتجلّى للعَيانِ عَبْرَهُما نافورةٌ فيها تمثالُ كيوبيد وشجيراتُ لَيلَكٍ مُتَفَتِّح وحَوزٌ هَرَميٌّ مشرئب.

إلى اليسار على خشبة المسرح زاويةُ موقِدٍ حجريٍّ كبيرٍ وجزءٌ من كِسائه.

إلى اليمين يبرُزُ أحدُ طَرَفَي طاولةِ طعام الخدم المصنوعة من خشب الصنوبر الأبيض مع عددٍ من الكراسي.

الموقدُ مَكْسُوٌّ بِشَذاتِ البَتولا، والأرضِيَّةُ منثورٌ عليها ورق العرعر.

على طرف الطاولة استقرَّت علبةُ بَهارٍ يابانيٌّ ضخمةٌ فيها ليلَكٌ مُتَفَتِّح.

خزانةُ ثلج، وطاولةٌ لِغسلِ الصحون ومَنشَرُ غسيل.

جَرَسٌ ضَخمٌ قديمُ الطراز يَعلو البابَ وأنبوبُ مناداةٍ يُغَمغِمُ إلى يسار البابِ نفسِه.



تقف كريستين عند الموقد وتقلي شيئاً ما في مقلاة، مرتديةً فستاناً قطنياً فاتح اللون عليه صدرية مطبخ. يدخل جان مرتدياً كسوةً أنيقة، حاملاً حذاء فروسيةٍ ذا مهماز يضعه في موضع مرئي على الأرضية.

جان:

لقد جُنّت الآنسة جولي الليلةَ أيضاً، إنها مجنونة تماماً.

كْريستين:

حسناً، هلْ جان هنا الآن؟

جان:

رافَقتُ الكونت إلى المحطة، وعندَ عودتي مروراً باللوج، دخلتُ ورقَصتُ. وإذا بي أرى الآنسةَ تَرْقُصُ مع البستانيّ. ولكنّها حين لمحتني، هَرَعتْ مرتميةً بين ذراعَيَّ لتدعُوَني إلى ڤالس السيّدات. ثمّ استمرّتْ ترقص الڤالس - كما لَمْ أرَ في حياتي. إنّها مجنونة!

كْريستين:

هكذا هي دائماً، إنّما ليس كما في آخِر أربعةَ عشرَ يوماً، منذ فُسِخَت الخطوبة.

جان:

بلى، ما الذي جرى في تلك القصّة؟ لقد كانَ رجلاً طيّباً، على أنّه لم يكن غنيّاً. إيه! لَكَمْ يتصنّعون. ***يجلس عند رأس الطاولة.***

إنّهُ أمرٌ غريب على أيّة حال، بالنسبةِ لآنسةٍ، إحِم، أن تُفَضِّلَ البقاء في المنزلِ مع الخَدَم، أليسَ كذلك؟ بَدلَ الذهابِ معَ والِدِها إلى الأقارب! أثناء منتصف الصيف!

كْريستين:

إنّها مُحرَجَةٌ على ما يبدو بعد الهرَجِ الذي حدث مع خطيبِها.

جان:

على الأرجح! ولكنّه كان رجلاً بمعنى الكلمة على أيّةِ حال. أتدرينَ، يا كْريستين، كيف جرى ما جرى؟ لقد رأيتُ ذلك بنفسي، على أنني لم أرغب أن يَبدو عليّ ذلك.

كْريستين:

كلّا، هل رأى جان ذلك؟

جان:

بَلى، فَعَلْتُ. - حدث ذلك بينهما في الإسطبل في إحدى الأماسي حيث كانت الآنسة تُرَوِّضُه على حد قولِها - أتدرينَ كيف جرى الأمر؟ حسناً، حَمَلَتْهُ على الركض والعبور فوق سوط الفروسية! جعلته يقفز كالكلب. أَتَمَّ قفزَتَينِ ونالَ عن كلِّ واحدةٍ منهما سوطاً. لكنَّهُ في الثالثةِ انتَزَعَ سوطَ الفروسية من يدِها وهَشَّمَهُ إلى ألف قطعةٍ قبلَ أن يغادِر.

كْريستين:

هكذا جرى الأمرُ إذَنْ! لا! ما الذي يقولهُ جان؟

جان:

بلى، هذا ما كان من الأمر! - ولكن ما الذي عندَكِ لي من الطَّيباتِ الآنَ؟

كْريستين تصبُ ممّا في المقلاةِ وتضع أمامَ جان:

آه، ليسَ سوى نتفةِ كِلْيَة قطعتُها من العجل المشوي!

جان يشمُّ الطعام:

لطيف! إنّها ألَذُّ وجبةٍ مُفَضَّلَةٍ عندي! ***يتحسّس الصّحنَ.***

كان بإمكانِكِ تسخينُ الصّحن!

كْريستين:

أصعَبُ من الكونت نفسِه، حينَ يشرع بِمَطالبِهِ. ***تَجُزُّ شَعرَهُ مُداعِبةً.***

جان *مُتألماً*:

لا، لا تَجُزّي شعري! فأنتِ تعلمينَ كم أنا حسّاس.

كْريستين:

لا بأسَ، لا بأسَ، لم يكن ذلك إلّا حُبّاً، وجان يعرِف.

يأكل جان. تُخرِج كريستين قنينةَ جعة.

جان:

جعَة، في ليلةِ مُنتَصَفِ الصَّيفِ: لا، شكراً جزيلاً! لَدَيَّ ما هو أفضل. ***يفتح أحد أدراج الطاولة ويخرج قِنّينةَ نبيذ أحمر مُوَشّاةً بطلاء أصفر.*** الطِّلاء الأصفر، كما تَرَين! أعطِيني قَدَحاً! قَدَحَ نبيذٍ ذا قاعدةٍ طبعاً، عندما يشربُ المرء **زلالاً!**

كْريستين التي تعود إلى الموقد وتضع عليه قِدراً صغيرة:

كان الرب في عونِ من تتَّخِذُهُ زوجاً! أيَّةُ فقاعةٍ منْ بَطَر!

جان:

إيه، هُراء! ستَسعَدينَ حتماً لو أنّكِ حَظيتِ بِرَجُلٍ لطيفٍ مثلي، ولا أظنُّكِ ترينَ بأساً فيّ أن أسمّى زوجَكِ! ***يتذوّقُ النبيذ.*** طَيِّب! طَيِّبٌ حقّاً! لكنَّهُ قليلُ الاعتدالِ قليلاً! ***يُسَخّن الكأس بيدِه.*** اشترينا هذا النبيذَ في ديجون. وكان سعرُ اللترِ منه أربَعَةَ فرنكاتٍ بدونِ زُجاجَتِه: عدا عن ضريبةِ الجُمرُك المُضافة! - ما الذي تَغلِينَهُ؟ وله هذه الرائحة الجَحِيميّة!

كْريستين:

آه، إنّه شيءٌ شيطانيٌ، تُريدُه الآنسة جولي من أجلِ ديانا.

جان:

عليكِ أن تُهَذِّبي ألفاظَكِ، يا كْريستين! ولكن ما الذي تقفينَ هناك لِتَسلُقيهِ من أجلِ الكلبةِ اللعينةِ في عَشِيَّةِ العيدِ؟ أهيَ مريضةٌ، أمْ ماذا؟

كْريستين:

نَعَم، هيَ مريضة! لقَد تَسَلَّلَت إلى الخارِجِ رِفقَةَ بَجِّ(15) حارس البَوّابَةِ -والجنونُ على أشُدِّهِ الآن- ولَكَ أن تُقَدِّرَ، فالآنسةُ لا تُطيقُ شيئاً من ذلك!

جان:

أحياناً تكون الآنسةُ شديدةَ الأَنَفةِ، وقَليلَةَ الكِبْرِ في أحيان أُخَر، تماماً كما كانت الكونتيسةُ طوالَ عُمرِها. كانت متعتُها البقاءَ في المطبخِ والإسطبلِ، ولكنَّها لمْ تَرغَبْ أبداً في رُكوبِ الخيلِ؛ كانت تسيرُ بأكمامٍ مُتَّسِخَةِ الكُفَّةِ، لكنَّ تاجَ الكونت منقوشٌ على أزرارِها. - الآنسةُ، كَيما يعودَ حديثُنا إليها الآنَ، لا تعتني بنفسِها وشَخصِها. أودُّ القولَ، إنَّها ليستْ راقيةً. للتوِّ، عندما رَقَصَتْ في اللوجِ، انتَزَعَت البُستانيَّ من جانِبِ آنّا لِتَدعُوَهُ للرَّقصِ بِنَفسِها. وما يَنبَغي لنا أنْ نَفعَلَ ذلكَ: لكنَّ هذا هو ما يحدُثُ عندَما يَتَصاغَرُ السّادةُ - فَهُمْ يصغُرُونَ! - ولكنَّها مَهيبةٌ! رائعة! آه! كَتِفاها! و- إلى آخرِهِ!

كْريستين:

أوه نعم، لا تَبخَس بإعجابِكَ! لقد سمعتُ ما تقولُ كلارا، وهي مَن تُلبِسُها ملابِسَها.

جان:

أُفّ، كلارا! أنتما تغارانِ من بعضِكُما البَعضِ دائماً! أنا من خرَجتُ وركبتُ الخيلَ معَها... ثُمَّ تمضي لِتَرقُصَ كما فَعَلتْ بعدَ ذلك!

كْريستين:

اِسمعني يا جان! ألا تُريدُ أن تَرقُصَ مَعي حينَ أفرَغُ من عملي؟

جان:

بَلى، بالطَّبعِ أريدُ ذلك.

كريستين:

أَيَعِدُني جان بذلك إذَنْ؟

جان:

أَعِدُ؟ عندَما أقولُ أنني سأفعلُ ذلك، فسأفعله! أمّا الآنَ فلَكِ منّي الشُّكرُ على الطعام. لقد كانَ طَيِّباً حقّاً! ***يَدُقُّ السَّدادةَ في القنينة.***

الآنسة *بالباب وكلامُها لِمَن في الخارج:*

سأعودُ على الفور! واصِلُوا حتى ذلك الحين!

يُخَبِّئ جان القِنّينة في دُرج الطاولة، وينهض باحترام.

الآنسة *تدخل، وتتقدمُ نحو كريستين عند المرآة:*

حسَناً، هل أنتِ جاهزة؟

تومئ كريستين بأن جان موجود.

جان *مُلاطِفاً:*

أهناكَ أسرارٌ بينَ الآنِسَتَينِ؟

الآنسة، *تَصفَعُه بالمنديل:*

هذا فُضول!

جان:

آهِ، ما أَطْيَبَ عِطرَ هذا البَنَفسَج!

الآنسة *بِغَنَج:*

يا للوقاحة! أَيَفهَمُ في العطورِ كذلك؟ الرَّقص، هذا ما يُحسِنُهُ.. حسناً، النَّظَرُ ممنوع! فَلْيذهَب في حالِ سبيلِه.

جان بِصَلَف، ولباقة:

هل هُناكَ حساءٌ سحريٌ تَطْهُوهُ الآنستانِ في ليلةِ مُنتَصَفِ الصَيف؟ شيءٌ يَصْلُحُ للتَبَصُّرِ بِنَجمِ السّعد، يرى المرءُ فيهِ طالِعَ أيّامِهِ المُقبِلة!

الآنسة بِجِدَّة:

إنْ كانَ لَهُ أنْ يَراهُ، فقد وَجَبَ أن يكونَ سديدَ البَصَر! ***تخاطبُ كْريستين:*** إملأي نِصفَ قِنّينةٍ وأحكِمي سِدادَها. - تعالَ الآنَ وراقِصْني رقصةً إسكتلنديةً يا جان..

جان مُتَرَدِّداً:

لا أريدُ أنْ أكونَ قليلَ الأدَبِ تجاهَ أحَدٍ، ولكنني وَعَدتُ كْريستين بهذهِ الرَّقصة...

الآنسة:

حَسَناً، بإمكانِها أنْ تُراقِصَ شخصاً آخرَ، أليسَ كذلك، يا كْريستين؟ ألا تريدينَ إعارَةَ جان لي؟

كْريستين:

لستُ مَنْ يَبُتُّ في الأمرِ، إطلاقاً. إنْ كانتْ الآنسةُ قد تنازَلَت إلى هذه الدَّرَجة، فليسَ من اللائقِ أنْ تُرفَضَ دَعوَتُها. هَيّا، فَلْيَمضِ! وَلْيَتَقَبَّلْ هذا الشَّرَف.

جان:

بِصَراحةٍ، ودونَ قصدِ جَرْحِ أُحَد، فإنني أتساءلُ ما إذا كانَ من الحكمةِ أن تُراقِصَ الآنسةُ جولي الفارِسَ نَفسَهُ مَرَّتَينِ مُتَتالِيَتَينِ، خصوصاً وأنَّ النّاس هنا لا يبخلونَ بتأويلاتِهم...

الآنسة مُزمجِرَةً:

أيَّةُ تأويلاتٍ؟ أيُّ نوعٍ من التأويلات؟ ما الذي يَقصِدُهُ؟

جان بوداعة:

لأنَّ الآنسةَ لا تَوَدُّ أنْ تَفهَمَ الأمرَ، لزِمَني أنْ أتكلَّمَ بوضوحٍ أكبر. سيبدو أمراً شائناً تفضيلُ أحدِ الرعايا على آخرينَ يتطلَّعونَ إلى الشرف الفريدِ ذاتِه.

الآنسة:

تفضيل! يا لها من أفكار! أنا مُتَعَجِّبة! أنا، سيدةُ المنزل، أشَرِّفُ حفلَ رَقْصِ الخدمِ بحضوري، وحِينَ أرغَبُ فِعلاً بالرَّقصِ، فإنني أريدُ شخصاً يُجِيدُ قيادَةَ الرَّقصة، كي أتَجنَّبَ التَّعَرُّضَ للسُّخرية.

جان:

تَحتَ أمرِ الآنسة! أنا في الخِدمَة!

الآنسة *بِلُطف*:

لا تأخذ المسألةَ وكأنني آمُرا في هذه العَشِيَّةِ سنذهبُ للحَفْلةِ كأُناسٍ سعداءَ ونضع المَقاماتِ جانباً! والآنَ، قَدِّمْ لي ذراعَكَ! - لا تَقلَقي يا كريستين! لَنْ آخُذَ خَطيبَكِ مِنكِ!

يُقَدِّمُ جان ذِراعَهُ ويسيرُ بالآنسةِ إلى الخارج.

پانتومايم

يُؤدّى كما لو أن المُمثّلة وحيدةٌ في المكان؛ تُديرُ، عندَ الحاجةِ، ظهرَها للجمهور. لا تتطلّعُ نحوَ الصّالةِ؛ ولا تتعجّلُ كما لو أنها تخشى نفادَ صبرِ الجمهور.

كْريستين وحدها. موسيقى خفيضة لكماناتٍ تعزفُ عن بُعدٍ على إيقاعٍ إسكتلندي.

كْريستين مُغَمْغِمَةً مع الموسيقى، تُرتِّبُ الطاولةَ خلفَ جان. تَغسِلُ الصّحنَ عندَ طاولةِ الغسيلِ، وتُنشِّفُهُ وتضعهُ في إحدى الخزانات.

بعدَئذٍ تخلَعُ صدريّةَ المطبخِ، وتُخرِجُ مرآةً صغيرةً من أحدِ أدراجِ الطاولة، تُسنِدُها إلى أصيص اللَّيلَكِ الذي على الطاولة، وتُشعِلُ شمعةَ شَحمٍ تُسخّنُ عليها دَبّوسَ شَعرٍ، كي تُجعّدَ بِهِ شعرَ جبهَتِها.

بعدئذٍ تمضي إلى الباب فتَستمِع. تعودُ إلى الطاولةِ. تَعثرُ على منديلِ الآنسةِ المَنسيّ، الذي تَتلَمّسهُ وتَشمُّهُ، ثُمّ تَبسُطهُ، كما في أفكارِها، وتمُدّهُ، وتثنيهُ وتَطويهِ في أربعِ أجزاء وهَلُمّ جرّاً.

جان يَدخُلُ، وَحدَهُ:

حسناً، لقد ثَبُتَ أنّها مجنونة! هذهِ الطريقةُ في الرَّقص! والنّاس يضحكونَ عليها خلفَ الأبواب. ما تقولينَ في ذلكَ يا كريستين؟

كْريستين:

آه، إنّما الزّمنُ زَمنُها الآنَ، ولذا فهي دائماً غريبةُ الأطوارِ هكذا. ولكن، أتُريدُ أن ترقُصَ معي الآنَ؟

جان:

ألَيسَ في نفسِكِ شيءٌ مِنْ كَوْنِي فَشِلتُ في ...

كْريستين:

لا! - لا لأمرٍ هَيِّنٍ كهذا، وجان يُدرِكُ ذلك حتماً، كما أنني أعرِفُ مكاني...

جان واضعاً يَدَهُ على خَصرِها:

أنتِ فتاةٌ عاقلةٌ، كريستين، وسوفَ تُصبِحِينَ زوجةً صالِحة...

الآنسة تدخل، وقد ضايقتْها المُفاجأة، مُجبَرَةً على المِزاح:

يا لَكُمْ من فارِسٍ آسِر - وأنتم تهرُبُونَ من سيِّدَتِكم!

جان:

على العكسِ، آنسة جولي، كما تَرَينَ فَقَدْ أسرَعتُ طَلَباً لسيِّدَةٍ انصرَفتُ عنها.

الآنسة وهي تطوف حولَهُما:

أتَعْلَمُونَ أنْ لا أحَدَ يرقُصُ كما تَفعَلون! - ثُمَّ لماذا ارتداءُ الكسوَةِ في ليلةِ عيد؟ إخلَعها عنكَ حالاً!

جان:

يتَوَجَّبُ علَيَّ إذَنْ أنْ أطلُبَ مِنَ الآنسةِ أن تَبتَعِدَ بُرهَةً، فمعطَفيَ الأسوَدُ مُعَلَّقٌ هنا... ***يسيرُ ويومئُ نحوَ اليمينِ.***

الآنسة:

أيَستَحي مِنّي؟ من أجلِ ارتداء معطف! فَلْيَذهَبْ إلى مَخدَعِهِ إذَنْ ثُمَّ يرجع! وإلّا فبإمكانِهِ البقاءُ، وسأدير لهُ ظهري.

جان:

لو أذِنَتْ لي الآنسة! ***يذهبُ إلى اليمين: بالإمكانِ رؤيَةُ ذراعِهِ بينَما هُوَ يغيِّرُ ثيابَه.***

الآنسة لكريستين:

أخبِريني يا كريستين: أهُوَ خطيبُكِ، جان، بعدَ ما أبدى من الوفاء؟

كريستين:

خطيب؟ نعم، إنْ أردنا رؤيةَ الأمر كذلك! فَلْنُسَمِّهِ كذلك.

الآنسة:

نسمِّيهِ؟

كريستين:

حسناً، لقد كان للآنسةِ نفسِها خطيبٌ، ثُمَّ...

الآنسة:

نعم، لقد كُنّا مخطوبَينِ حقّاً...

كريستين:

لكنَّ الخطوبةَ مع ذلك انتَهَتْ إلى لا شيء...

جان يدخلُ مرتدياً فراكاً*(16) *وقُبَّعةً رسميَّينِ أسوَدَينِ.

الآنسة:

Très gentil; monsieur Jean! Très gentil!

جان:

Vous voulez plaisanter, madame!

الآنسة:

Et vous voulez parler français!(17)

أينَ تَعَلَّمتُموها؟

جان:

في سويسرا، بينما كنتُ ساقياً في أحدِ الفنادِقِ الكبرى في لوسِزن.

الآنسة:

لكنَّكم تبدونَ كسيِّدٍ مُحترَمٍ في هذا الريدِنـغوث! آسِر! ***تجلِس إلى الطاوِلَة.***

جان:

آه، حضرتُكِ تُجاملينَ!

الآنسة *ممتعِضَةً*:

أُجامِلُه؟

جان:

الحياء الذي في طَبْعي يمنعني من الاعتقادِ بأنَّ حضرتَكِ تُصرِّحِينَ بمُلاطَفاتٍ حقيقيَّةٍ لِمَنْ هوَ مثلي، ولذلكَ سمَحْتُ لنفسي أنْ أحسَبَ أنَّ حضرَتَكِ قد بالَغتِ، أو جامَلتِني كما يقولون!

الآنسة:

أينَ تَعلَّمتُم تنميقَ الكلامِ هكذا؟ لعلَّكُم كنتُم تُواظِبُونَ على ارتيادِ المسارِحِ كثيراً؟

جان:

بَلى! لقَدْ طَوَّفْتُ بالعديدِ منَ الأماكِنِ، فعلاً!

الآنسة:

ولكنَّكُم مَوْلُودٌ هنا في هذه الأنحاء؟

جان:

كانَ والِدي مُستَخدَماً في مكتبِ الجِبايةِ العامّةِ القريبِ من هنا، ولَقَدْ رأيتُ الآنسةَ عندَما كانت طِفلَةً، رغمَ أنَّ الآنسةَ لَمْ تُلاحِظْني!

الآنسة:

كلّا، بالفِعل!

جان:

نَعم، وأذكرُ تحديداً مَرّةً بِعَينِها... ولكِنّني لا أستطيعُ الحديثَ عنها!

الآنسة:

إيهِ، بَلى! اِفعَل! ماذا؟ أهِيَ استثناءٌ إلى هذا الحدّ؟

جان:

كلّا، لا أستطيعُ ذلكَ الآنَ حقّاً! رُبّما في مَرّةٍ أخرى.

الآنسة:

قولُكَ «في مرةٍ أخرى» احتيال. هل الأمرُ بهذه الخطورة؟

جان:

لا خطورةَ في الأمر، لكنّهُ يدفع إلى الضّيق! - فَلتَنظُر الآنسةُ إلَيها! ***يُشيرُ إلى كريستين، التي غَفَت على كرسِيٍّ عندَ الموقِد.***

الآنسة:

ستكون زوجةً طيِّبةً، تِلكَ! ولَعَلّها تَشخرُ كذلك؟

جان:

هي لا تفعلُ ذلك، ولكنّها تَتكَلّمُ في نَومِها.

الآنسة *بتَهَكُّم*:

وما أدراكُم بأنّها تتكَلّمُ في نومِها؟

جان *بِوَقاحة*:

لقد سمعتُها تفعَل!

تَوَقُّف، يَنظُرانِ أثناءَهُ إلى بعضِهما!

الآنسة:

لماذا لا تَجلِسونَ؟

جان:

لا أستطيعُ السماحَ لنفسي بِذلكَ في حضرَتِكِ!

الآنسة:

وإذا ما أمرتُ بذلك؟

جان:

عندئذٍ سأُطيع!

الآنسة:

اِجلِس إذَنْ! - أو انتَظِرْ! هل لكُمْ أن تُعطوني شيئاً أشرَبُهُ أولاً؟

جان:

لا أعرِفُ ما لَدَينا هنا في خزانةِ الثلج. أعتقد أنها جِعَةٌ فقط.

الآنسة:

الجعةُ ليست بالأمر القليل! كما أنَّ ذوقيَ من البساطَةِ بحيثُ أُفَضِّلُها على النَّبيذ.

جان يُخرِجُ قِنّينَةَ جعةٍ من خزانةِ الثلج: ويبحث في خزانةِ الصحونِ عن قَدَحٍ وصحنٍ ويبدأُ في التَّقديم:

تَفَضَّلي!

الآنسة:

شكراً! ألا تريدُونَ بدورِكُم أن تشربوا؟

جان:

لَستُ من مُحبِّي الجِعَةِ، ولكنّني أفعلُ إن أمَرَت الآنسة!

الآنسة:

آمُر؟ - أرى أنّ من واجِبِكُم، كفارِسٍ مُهَذَّبٍ، أنْ لا تترُكُوا سيِّدَتَكُم تشربُ وحدَها.

جان:

هذه ملاحظةٌ صحيحةٌ للغاية! ***يفتَحُ قِنّينةً أخرى، ويأخذُ قَدَحاً.***

الآنسة:

اِشرَب كأساً في صِحّتي!

جان يتردد.

الآنسة:

أعتقدُ أن السيِّدَ الكَهلَ خَجِل!

جان يجثو على رُكبَتيهِ، مازِحاً في تقليدٍ ساخرٍ، رافِعاً كأسَهُ:

في صحّةِ حاكِمَتي!

الآنسة:

براڤو! - والآنَ سوفَ تُقَبِّلُونَ حذائي كذلك، فتكونوا أتقَنتُم الدَّور!

جان مُتَرَدِّداً لِلَحظة، لكنه عقبَ ذلك يُمسِك بجسارةٍ بقدمِها التي يُقَبِّلُها قُبلَةً ناعمة.

الآنسة:

ممتاز! كان ينبغي أن تُصبِحوا مُمَثِّلاً.

جان، وهو ينهض:

ليس من الحكمة الاستمرارُ في هذا! آنستي؛ قد يأتي أحدهم فيرانا.

الآنسة:

وما الضيرُ في ذلك؟

جان:

كلامُ الناس، ببساطة! ولو علِمَتْ الآنسةُ بما لاكتْهُ ألسِنَتُهُمْ هناكَ قبلَ قليل، لكانت..

الآنسة:

وما الذي قالوه؟ أخبِرني! - إجلِس الآن!

جان *يجلس*:

لا أريدُ أن أجرَحَ حضرَتَكِ، لكنّهم تَفوَّهوا بعباراتٍ - ترمي بِشُبهاتٍ من ذلك النَّوعِ الذي... حسناً، بإمكانِ حضرتِكِ أن تُدرِكي القصدَ بِنفسك! فحضرتُكِ لستِ طفلةً، وإذا ما رأى أحدهم سيدةً تشرَبُ في خلوةٍ مع رجل - وكانَ من خدَمِها - ليلاً – فَسوفَ...

الآنسة:

سوفَ ماذا؟ وعلاوةً على ذلكَ فنحنُ لسنا وحدنا. كريستينُ هنا.

جان:

نائمةً، نعم!

الآنسة:

إذَن سأوقِظُها. *تنهض*. كريستين! هل أنتِ نائمة؟

كريستين تُغَمغِمُ في نومِها.

الآنسة:

كريستين! - لها أنْ تنام!

كْريستين في نومها:

فَرْشث حذاءَ الكونت - حَضّرْث القَهوةَ - فَوراً، فَوراً، فَوراً. - هيّا هيّا - ياه!

الآنسة *تُمسِك بأنفِ كريستين:*

ألا تَستَيقِظينَ!

جان *بِصرامة:*

لا تُقلقوا منامَ النائم!

الآنسة *بِجِدّة:*

ماذا؟!

جان:

تلكَ التي تَقِفُ طوالَ النّهارِ عندَ الموقِدِ قد تكونُ مُتعَبَةً، عندما يحلُّ الليل. وعلى المرء احترام النَّوْم...

الآنسة *وهي تَعود:*

إنّهُ رأيٌ جميلٌ، ويُشَرِّفُ صاحِبَهُ - شكراً على إبدائه! ***تمُدُّ يَدَها إلى جان.*** هيّا بنا لِنَخرُجَ، كي تَقْطِفوا لي بَعضَ اللّيلَك!

أثناءَ ما يلي، تستيقظُ كريستين، وتسيرُ والنُّعاسُ يُغالِبُها نحوَ اليمين كي تنام.

جان:

مَعَ الآنسة؟

الآنسة:

نعم، معي!

جان:

هذا لا يجوز! إطلاقاً!

الآنسة:

لا أستطيعُ فَهمَ أفكارِكُم. أيُمكِنُ أنَّكُم تتوهَّمونَ شيئاً ما؟

جان:

لا، لستُ مَن يتوهم، بل النّاس.

الآنسة:

ماذا؟ أنني قد أكونُ مُغرَمَةً بالخادِمِ؟

جان:

لَستُ رَجُلاً يَنقادُ للوَهم، لكنَّ المرءَ يعتَبِرُ بِغَيرِهِ - والنّاسُ لا مُقَدَّسَ لَهُم!

الآنسة:

يبدو لي أنَّ السَّيِّدَ أرستقراطيّ!

جان:

نَعَم، أنا كذلك.

الآنسة:

سأنزِل...

جان:

لا تَنزلي، آنستي، واستمعي لِنُصحي! ما مِن أحدٍ سيرى أنَّكم تنزلينَ طوعاً، فالنّاس سيقولونَ دوماً أنَّكم قد سَقَطتِ!

الآنسة:

إنّني أُحسِنُ الظَّنَّ في النّاسِ، خلافاً لك! تعالَ نُجرِّب! تعال! ***تطوِّقُهُ بعينيها.***

جان:

أتَعلَمُ آنستي أنّها عجيبة!

الآنسة:

رُبّما! ولكنَّكُم كذلكَ أيضاً! وبالمناسبةِ، فكلُّ شيءٍ عجيبٌ! الحياةُ، والبَشَر، كلُّ شيء، عبارةٌ عن زَبَدٍ يجري بِهِ الماء، يجري بِهِ، حتّى يغرَقَ، ويغرقُ! لي حُلْمٌ يُعاوِدُني بين فترةٍ وأخرى، وها أنا أتذكّرهُ، أنّني أعتلي عموداً سبقَ أنْ تَسَلَّقتُهُ وما مِنْ وسيلةٍ لي فأنزِلَ؛ أُصابُ بالدُّوارِ عندَما أنظُرُ إلى الأسفَل، هناكَ حيثُ يَنبغي أن أكون، ولكنَّ الشجاعةَ تخونُني فلا أرمي بنفسي إلى الأسفل؛ لا أقوى على التَشَبُّثِ لأظلَّ في مكاني بينما أنا أتوقُ لأن أسقُطَ، لكنني لا أسقُطُ. ومع ذلكَ فلا أعرفُ مذاقَ الرّاحةِ حتّى أنزلَ، أنزلَ إلى الأرض! وإن كانَ ونزلتُ إلى الأرضِ فإنني أتوق لأن أغيبَ في أعماقِها... هل شَعَرْتُمْ بشيءٍ كهذا؟

جان:

لا. في العادةِ أحلمُ أنني أرقُدُ تحتَ شجرةٍ عاليَةٍ في غابةٍ مُعتمة. أريدُ الارتقاء، إلى أعلى قِمّتِها كي أتَطَلَّعَ إلى المنظَرِ البَهيّ، هناكَ حيثُ الشمسُ المُشرِقَة، وأنهَبَ العشَّ الذي يعلو القمّة، وترقُدُ فيهِ البَيضاتُ الذَّهَب. وأتسلَّقُ وأتسَلَّقُ لكنَّ الجذعَ جدُّ سميكٍ، وجدُّ أملَس، وما أطولَ المسافةَ إلى الغُصنِ الأول. لكنني أعلمُ أنني بِمُجَرَّدِ بُلوغي الغصنَ الأولَ، فسأصلُ إلى القِمّةِ كمن يرتقي سُلَّماً. لم أبلُغهُ بعدُ، لكنَّني سأبلُغُهُ، حتى لو لم يكنْ ذلكَ سوى في الحلم!

الآنسة:

ها أنا أقفُ وأتكلمُ معكُم عن الأحلام. هيّا! فلنخرُج إلى الحديقة! ***تُقدِّمُ لَهُ ذراعها، ويسيران.***

جان:

يجبُ أنْ ننامَ الليلةَ على تِسعٍ من زُهور منتصف الصيف، حتّى تَتَحَقَّقَ أحلامُنا!

آنستي!

استدارت الآنسةُ وجان عندَ الباب. يضع جان يَدَه على إحدى عينَيه.

الآنسة:

اِسمَحوا لي بِرُؤيَةِ ما دخلَ في عينِكُم!

جان:

آه، لا شيءَ مهم -مُجَرَّدُ قذى- سيزولُ حالاً.

الآنسة:

إنّهُ مِن كُمِّ ثوبي الذي أصابكَ، إجلِس، حتى أساعدَك! ***تأخُذُهُ مِن ذراعِهِ وتُجلِسه، وتُمسِك بِرأسِهِ فتميلُهُ إلى الخلف، ثُمّ وبِطَرفِ منديلِها تُحاولُ إخراج القذى.*** إجلِس ساكناً، ساكناً تماماً! - ***تضربُ ظَهرَ يَدِه.*** هكذا! أَفَلا يكونُ مُطيعاً! - أظنُّهُ يرتَعِش، هذا الرجُلُ، القويُّ، الكبير! -***تتحسّسُ عضُدَه.*** بذراعَينِ كهاتَينِ!

جان مُحذِّراً:

آنسة جولي!

الآنسة:

نَعَم، مُسيو جان.

جان:

Attention! Je ne suis qu' un homme!(18)

الآنسة:

فليتفضّل السيّدُ بالجلوس ساكناً! - هكذا! ها قَد وَلّتْ! قَبِّلْ يَدي، واشكرني!

جان ينهض:

آنسة جولي! اسمعيني! - ها قد ذهبَث كريستين لتنامَ في مخدعها! - أرجو أن تتفضلي بالاستماع إلَيّ!

الآنسة:

قَبّل يَدِي أوّلاً!

جان:

إسمعيني!

الآنسة:

قَبّل يَدِي أوّلاً!

جان:

حسناً، لا تلوموا إلا نَفْسَكم!

الآنسة:

على ماذا؟

جان:

على ماذا؟ هل حضرتُكِ طفلةٌ في الخامسةِ والعشرينَ من العمر؟ ألا تعلَمُ الآنسةُ أنَّ اللعبَ بالنّارِ خَطير؟

الآنسة:

هذا لا يَشمَلُني، فأنا مُؤَمَّنٌ علَيّ!

جان *بصرامة:*

كلّا، لستم كذلك! وإنْ كُنتم كذلك، فإنَّ في جوارِكُم كَياناً قابلاً للاشتعال!

الآنسة:

وهذا الكيانُ هو أنتم؟

جان:

نعم! لا لأنّه أنا، وإنّما لِكَوْنِيَ شابّاً.

الآنسة:

ذا مَظْهَرٍ لائق - يا للغرور الذي لا يُصَدَّق! باعتباركم دون جواناً ربّما! أو يوسفاً! يا إلهي، أعتقدُ أنَّهُ يوسف!

جان:

أتعتقدونَ ذلك؟

الآنسة:

أكادُ أخشى ذلكَ!

جان *متقدّماً بحزمٍ نحوها وهو ينوي الأخذَ بِخَصرِها كَي يُقَبِّلَها.*

الآنسة *تَصفَعُه:*

ويحَك!

جان:

أهذا مزاحٌ أمْ جِدٌّ؟

الآنسة:

جِدٌّ!

جان:

وما حدَثَ للتوِّ كانَ جِدّاً كذلك! حضرَتُكِ تلعبينَ بمنتهى الجِدِّيَّةِ وهذا هو الأمرُ الخطيرُ! لقد سئمتُ اللَّعِبَ وأستأذنُ في العودةِ إلى عمَلي. يُريدُ الكونت حذاءَهُ في

موعده ومنتصَفُ الليلِ جاوزَنا منذ وقتٍ بعيد!

الآنسة:

ضَع الحذاءَ جانباً!

جان:

لا! هذه وظيفتي، التي أنا مُلزَمٌ بأدائها، أمّا اللّعِبُ معكم فهذا ما لم أتعهّد بِهِ أبداً، وليسَ لي أنْ أفعلَ ذلكَ أبداً، إذْ أرى نفسي أعلى شأناً من ذلك!

الآنسة:

أنتم شديدُ الفَخر!

جان:

في بعض الحالات؛ ولستُ كذلك في غيرِها!

الآنسة:

هل سَبَقَ لَكُمْ أنْ أحبَبْتُمْ؟

جان:

نحنُ لا نستعمل هذه الكلمة، لكنّني شُغِلْتُ بالعديد من الفتياتِ، وفي إحدى المرّاتِ مَرِضتُ لأنني لَم أستطِعْ نَيلَ ما أرَدتُ؛ مَرِضتُ، آنستي، كالأمراء في ألف ليلةٍ وليلة! أولئكَ الذينَ لَمْ يَقوَوا على تذوّقِ الطعام أو الشراب لِفَرْطِ الحُبّ!

الآنسة:

مَنْ كانَتْ؟

جان يصمت.

الآنسة:

مَنْ كانَتْ؟

جان:

لا يُمكِنُكُمْ إرغامي على الإفصاح.

الآنسة:

وإنْ سألتُكُمْ سؤالَ النَّظِيرِ لِنَظيرِهِ، سؤالَ الصّديق! مَن كانت؟

جان:

حضرتُك!

الآنسة *تجلس:*

كم هو مُكلِف...!

جان:

نعم، إنْ شِئتُم! كانَ أمراً سخيفاً! - كما تَرَى الآنسةُ، تلك هي القصّة التي لَمْ أرغَب للتوِّ في روايتِها، ولكنّني الآنَ سأحكيها!

أتَعرفُ الآنسةُ كيفَ يبدو العالَمُ من الأسفلِ هناك؟ - كلّا طبعاً! تماماً كالصّقورِ والبُزاةِ، التي نادراً ما يرى المرءُ ظهرَ أحدِها لأنّها غالباً ما تُحَلِّقُ في الأعالي! لقد عِشتُ في كوخٍ حكوميّ مع سبعةِ إخوةٍ، وخنزيرٍ يعلف خارجاً في الحقلِ الرّماديّ الذي لم تنبت فيه شجرة! ولكنّني، وعبْرَ النّافِذَةِ، كنتُ أرى سورَ حديقةِ الكونت وأشجارَ تُفّاحها هناكَ في الأعلى! كانت جَنّةَ عَدْنٍ، وهناكَ وقفَ العديدُ مِنَ الملائكةِ الأشرارِ يحرسونَها بسيوفٍ من نارٍ لاهبةٍ! وعَبَثاً كان سعيي وَسَعْيُ الصِّبيَةِ الآخرينَ للوصولِ إلى شَجَرَةِ الحياة - حضرتُكِ تَحتَقرينَني الآنَ؟

الآنسة:

آه! ما مِنْ صَبِيّ لا يسعى إلى سرقةِ التُّفّاح.

جان:

لكُمْ أن تقولوا ذلك الآنَ، ولكنَّ حضرَتَكِ تحتقرينَني على أيّةِ حال! ولا بأس! مرةً دخلتُ إلى جنّةِ عَدْن تلك مَعَ أمّي كي نُنَظِّفَ مصاطِبَ البصل. جنبَ أرضِ الحديقةِ انتصب ما بدا كسُرادِقٍ تُركيٍّ تحتَ ظلال الياسمينِ ووارِفٍ من الكاپريفوليوم(19). لَمْ أعرِفْ ما وجهُ استخدامِهِ، ولكنّني لم أرَ قبلَ تلك المَرّةِ بناءً يُضاهيهِ جمالاً. كانَ النّاسُ يدخلونَهُ ثُمَّ يخرجون منهُ، وفي يومٍ من الأيامِ تُرِكَ بابُهُ مفتوحاً. تَسَلّلتُ إلى هناكَ ورأيتُ الجُدرانَ مكسوّةً بلوحاتِ الملوكِ والقياصِرة، وعلى النّوافِذِ ستائرُ حُمرٌ لها هُدُب - بَدأتِ تُدرِكينَ ما أقصِد. أنا — ***يقطف زهرةَ لَيلَكٍ ويرفعها إلى أنفِ الآنسة.***
- لم يسبِقْ لي قبلها أبداً أن كُنتُ داخلَ القلعة، ولَمْ أرَ بناءً قبلَها أبداً سوى الكنيسةِ - ولكنَّ هذه كانت أجمل، ويا للفِكرِ الذي سَرَحَ، بلا عودَةٍ إلى صاحبه - هناك. ولَمْ يَلبَث أن تجلّى تَوقٌ إلى تجربةٍ مَسَرَّةٍ أنْ... - **على كلِّ حال**، تسلّلتُ إلى داخلها، رأيتُ وأُعجِبتُ. وإذا بِشَخصٍ يأتي! كانَ هناكَ مخرجٌ واحدٌ فقط للسّادة، أمّا أنا فكانَ لي مخرجٌ آخر، ولَمْ يَسَعْني إلّا أن أختارَه!

الآنسة، التي كانت قد أخذَت زهرةَ الليلك، تتركها تسقطُ على الطاولَة:

جان:

ثُمَّ شَرَعتُ في الرَّكض، اخترقتُ سياجَ شجيراتِ التوت، مُندَفِعاً فوق مصطبةِ فراولة، وصَعَدتُ إلى شُرفَةِ الوَرد. هناكَ رأيتُ ثوباً وَردِيّاً وجورَبَينِ أبيَضَينِ - وكانت حَضرَتُك. استَلقَيتُ تحتَ كومَةٍ من الحشائش، وتحتَ، لو تَتَصوَّرينَ، تحتَ شوكٍ يخِزُني، وَعلى تُرابٍ كريهِ الرائحة. ونظرتُ إليكِ وأنتِ تَسيرينَ بينَ الورود، فَقُلتُ لنفسي: إنْ كانَ حقّاً أنْ بإمكانِ لصٍّ دخولَ الجَنّة فيصبِحَ بينَ الملائكةِ، فَمِنَ العجيبِ أنْ لا يتمكّنَ ابنُ مُستَخدَمٍ حكوميٍّ هنا على أرضِ الربِّ من الدُخولِ إلى حديقةِ القلعةِ فيلعبَ مع ابنةِ الكونت!

الآنسة كمن يرثي:

أَتَظُنّونَ أن أطفالَ الفقراءِ جميعاً كانوا سيفكرون مثلَكُم في هذه الحال؟

جان مترددًا أول الأمر ثم بقناعة:

إن كانوا **جميعاً** فقراءَ - نعم - بِالطّبْع! بالطّبع!

الآنسة:

إذَنْ فهي مُصيبَةٌ لا حدَّ لها أن تكونَ فقيراً!

جان بألمٍ عميق، مشحوناً بشدّة:

أوّاه، آنسة جولي! أوّاه! - من حقّ كلبٍ أن يستلقيَ على أريكةِ الكونتيسّة، ويمكنُ لحصانٍ أن تُداعِبَ يدُ الآنسةِ خَطْمَهُ، أمّا الفقير - ***يبدّل نبرتَه*** - إيه نعم، لدى البعض جوهرٌ يمكنُ أنْ يرفَعَ شأنَهُ في العالم، ولكنْ، كمْ مرّةً يحدث ذلك في الحياة! - عدا ذلك، أتَعْرِفُ الآنسةُ ما فعلتُ بعدها؟ - نَزَلْتُ في جدولِ الطّاحونة بثيابي، وأُخرِجْتُ وعوقِبتُ بالضرب. لكنني في يومِ الأحدِ التالي، عندما ذهبَ والدي وجميع من في البيتِ إلى جَدّتي لأمّي، تحايلتُ كي أظلَّ في البيت. واغْتَسَلتُ بالصابون والماء الدّافئ، وارتدَيتُ أفضلَ ثيابي وذهبتُ إلى الكنيسة، حيثُ كنتُ سأرى حضرَتَكِ! رأيتُ حضرتَكِ ورجعتُ إلى البيتِ، عازماً على الموتِ. لكنّني أردتُ ميتةً جميلةً ولطيفةً، بلا ألَم. وعندئذٍ تذكّرتُ أنَّ من الخطورةِ النومَ تحتَ أُجَمَةِ بَيْلَسان. كانت لدينا بيلسانةٌ ضخمةٌ تفَتَّحت جميعُ أزهارِها للتوّ. سلَبْتُها كُلَّ ما عليها، ثُمَّ فَرَشْتُ الأزهارَ في خزّانِ الشّوفان. ألاحَظَت الآنسةُ غضارةَ الشوفان؟ ناعمُ الملمسِ كَبَشْرَةِ إنسان...! ومن ثَمَّ أطْبَقتُ غطاءَ الخزّانِ وأغمَضتُ: غَفَوتُ لأصحو بعدها في أشدِّ المَرَضِ فِعلاً. لكنّني لَم أمُتْ، كما تَرَى الآنسة.

ما الذي أرَدتُه -لا أعرف! فالأملُ في الفوزِ بِحضرتِكِ كانَ معدوماً- بَلْ كانت الآنسةُ إشارةً إلى استحالةِ الخروج من ذلكَ المُحيطِ الذي نشأتُ فيه!

الآنسة:

سَرْدُكُم ساحِرٌ، لو تعلمونَ! هل التَحَقتُم بِمَدرَسَة؟

جان:

قليلاً، لكنّني قرَأتُ العديدَ من الرّواياتِ وارتَدْتُ المَسارِحَ. عدا عن ذلك فقد سمعتُ كيفَ يتكلّمُ عِلْيَةُ الناس، ومنهم أُخَذتُ أغلَبَ تعليمي.

الآنسة:

أَتَقفُونَ لِتَستَرِقوا السَّمعَ لما نقول؟

جان:

نَعم، بالتأكيدا ولَقَد سَمِعتُ الكثيرا عندَ جلوسي في مقعدِ الحُوذِيِّ أو وأنا أجذِّفُ في القارب. مَرَّةً سمعتُ الآنسةَ جولي معَ إحدى صديقاتِها...

الآنسة:

أوه! - ما الذي سمعتُمُوهُ؟

جان:

حسناً، لن يكونَ من اللائقِ أن أقول؛ ولكنّني تَعَجَّبتُ بَعضَ الشيءِ، ولم أفهم من أينَ تَعَلَّمتُما تلكَ الكلماتِ كلَّها. لَعَلَّ الأصلَ في الأمرِ أنَّ الفرقَ ليسَ كبيراً بينَ ناسٍ وناس!

الآنسة:

أوه، وَيحَك! نحنُ لا نفعلُ مثلَكم في فترةِ الخطوبة!

جان *يرمقها بنظرةٍ حادّة:*

أهذا أكيد؟ حسناً، لا يستَحِقُّ الأمرُ أن تَلبَسَ الآنسةُ ثوبَ البراءةِ من أجلي...

الآنسة:

لقد كانَ وضيعاً، ذلكَ الذي مَنَحتُهُ حبّي.

جان:

هذا ما تقولُهُ الآنسةُ دائماً - فيما بعد.

الآنسة:

دائماً؟

جان:

أعتقدُ ذلك، لأنني سمعتُ التعبيرَ مرّاتٍ عديدةً في مناسباتٍ مُتَفَرِّقة.

الآنسة:

أيّةُ مناسبات؟

جان:

كموضوعِ حديثنا! آخرَ مرّةٍ...

الآنسة تنهض:

أُسكُتْ! لا أريدُ سماعَ المزيد!

جان:

حتّى **هي** لَمْ تُرِدْ ذلك - يا للعَجَب. حسناً، أرجو الإذنَ بالانصراف للنوم.

الآنسة برِفْق:

تذهب للنوم في ليلةِ منتصف الصيف؟

جان:

نعم! الرّقصُ مع اللفيفِ الموجودِ هناكَ في اللوج لا يروقُ لي فِعلاً.

الآنسة:

خُذْ مفتاحَ القارب وأبحِرْ بي في عَرضِ البُحَيرَةِ: أُريدُ رُؤيةَ شروقِ الشّمس!

جان:

هل هذا مِنَ الحكمة؟

الآنسة:

مَنْ يسمعكُم يَظُنُّ أنّكُم تخشونَ من هذا على شمعَتِكم!

جان:

لِمَ لا؟ لا أحَبِّذُ أن أصبِحَ أضحوكةً، ولا أحَبِّذُ أن أطْرَدَ ناقِصَ القَدر، بينما أسعى لترسيخِ قَدَمي! كما أرى أنَّ عليَّ التزاماً مُعَيَّناً تجاه كريستين.

الآنسة:

أها، فهي كريستين إذَن...

جان:

نعم، وكذلك تجاهَ حضرَتِك. فَلْتأخُذ الآنِسَةُ بنصيحتي وَلْتَصْعَدْ كي تخلُدَ إلى النوم!

الآنسة:

أيَجِبُ أنْ أطيعَك؟

جان:

لمرةٍ واحدة، لِمصلحةِ حضرَتِك! أتَرَجّى حضرَتَكِ! يكادُ الليلُ ينقضي، والنُّعاسُ يُسكِرُ المرءَ ويَذْهَبُ بِعَقْلِه! فلتَذْهَب الآنسةُ كي تنام! بالمناسبة - إن لَمْ يَخُنّي سمعي - فهناكَ أناسٌ قادمونَ إلى هنا وسيطلبونني! وإذا ما وجدونا هنا، فحضرَتُكِ ضائعة!

تقتربُ الجوقَةُ صادِحَةً بالغناء:

اِمرأتانِ مِنَ الغاباتِ آتِيَتانِ

ثرِيدي رِيدي-رالّا ثرِيدي رِيدي-را

واحدةٌ قَدَماها حافيتانِ

تريدي ريدي - رالّا - لَا

ثَرثَرَتا عن مالٍ ما نَفِدا

تريدي ريدي-رالّا تريدي ريدي-را

وجيوبُهما خاويةٌ أبدا

تريدي ريدي - رالّا - لا

أمنحك الإكليل

تريدي ريدي-رالّا تريدي ريدي-را

وأُفَكِّرُ بِبَديل

تريدي ريدي - رالّا - لا

الآنسة:

إنّني أعرفُ هؤلاء النّاس، وأُحِبُّهم، كما يحبّونني. فَلْيدخلوا، وسوف تَرَونَ!

جان:

كلّا، آنسة جولي، إنهم لا يُحبُّونَ حضرَتَكِ. إنَّهم يأخذونَ طعامَ حضرَتِكِ، لكنَّهمْ يبصقونَ بعدَ أكلِه! صدِّقيني! إسمعيهم، إسمعي ما يُغَنّونَ فقَط! - لا، لا تَسْمَعيهم!

الآنسة تُصغي:

ماذا يُغَنّونَ؟

جان:

نِيدڤيسا! عن حضرَتِكِ وعنّي!

الآنسة:

يا لِلُّوم! أوه، تَبّاً! ويا لِلخُبث! -

جان:

هذا لفيفٌ من الرِّعاع! وفي نزالٍ كهذا ليس بوسع المرء سوى الفرار!

الآنسة:

الفرار؟ إلى أين؟ لن نستطيعَ الخروج! ولا الدُّخولَ إلى مخدَعِ كريستين!

جان:

إذَنْ فإلى مَخدَعي! للضرورةِ أحكامُها: ولحضرتِكِ أن تَثِقِي بي، فما أنا إلا صديقٌ حقيقيٌّ حافِظٌ وصادق!

الآنسة:

ولكنْ! - ماذا إذا طَلَبوكُم هناك؟

جان:

سأُزلِجُ الباب، فإذا أرادوا الدّخولَ عنوةً، أطلَقتُ النّارا - هَيّا! ***جاثياً***. هَيّا!

الآنسة *مُشَدَّدَةً*:

أتَعِدُونَني...؟

جان:

أُقسِم!

تخرُجُ الآنِسَةُ مُسرِعَةً إلى اليمين.

يَهرَعُ جان في إثْرِها.

باليه

الفلّاحون يدخلون بملابسِ العيد، تُزيّنُ الزهورُ قُبعاتِهم ويتقدمهم عازفُ كمانٍ. يضعون على الطاولةِ برميلَ شرابٍ خفيفٍ وخابيةَ شرابٍ مُقطّرٍ مُزيّنَينِ بأوراقِ الشّجرِ، ويُؤتى بالأقداحِ. ثمّ يشربونَ. وبعد ذلك يصطفّونَ في حلَقةٍ فيرقصونَ ويغنّونَ: «إمرأتانِ منَ الغاباتِ آتيتانِ».

وحينَ يتمُّ ذلك، يخرجونَ ثانيةً وهم يغنّونَ.

الآنسة تدخل وحيدةً: ترى الفوضى في المطبخِ، تعتصرُ يدَيها، ثمّ تُخرجُ علبةَ مسحوقِ تجميلٍ وتَضعُ منها على وجهِها.

جان يدخلُ، مُنفعِلاً:

ها قد رأتِ الآنسة! وها قد سمِعَتْ! فَهَلْ تَرَى أنَّ من الممكنِ البقاءَ هنا؟

الآنسة:

لا، لا أرى ذلك! ولكنْ ماذا سنفعلُ والحالُ هذه؟

جان:

نهربُ، نسافرُ، بعيداً عن هنا!

الآنسة:

نسافرُ؟ بلى، ولكنْ إلى أين؟

جان:

إلى سويسرا، إلى البحيراتِ الإيطالية: أذَهَبَت الآنسةُ يوماً إلى هناكَ؟

الآنسة:

كلّا! أهيَ جميلةٌ؟

جان:

آه، صيفٌ دائم، بُرتقال، مروجٌ خُضرٌ، آه!

الآنسة:

ولكن، ما الذي سنفعلهُ هناك؟

جان:

سأنشئ فُندقاً من الدَّرَجةِ الأولى، بأثاثٍ ونُزلاءَ مِنَ الدَّرَجَةِ الأُولى.

الآنسة:

فُندُق؟

جان:

لو تعلم الآنسةُ أيَّةَ حياةٍ في ذلك: وجوهٌ جديدةٌ لا تنقَطِع، لُغاتٌ جديدةٌ، ما من دقيقةٍ زائدةٍ للملَلِ والهَمِّ والاضطرابِ، لا بَحثَ عن شيءٍ لنَفعَله - فالعَمَلُ متواصل: الجرس الذي يرنُّ ليلَ نهار، القطارُ الذي يُصَفِّرُ، حافلاتُ النقلِ التي تروح وتجيءُ، بينَما قِطَعُ الذَّهَبِ تتدحرجُ على المكتَب. يا لها مِن حياة!

الآنسة:

نعم، كذلكَ يمكنُ للمرءِ أن يحيا! وماذا عنّي أنا؟

جان:

سَيِّدَةُ المَنزِل: أُبَّهَةُ الشَّرِكة. بِمَظْهَرِ حضرَتِكِ... وأسلوبِ حضرَتِكِ - ياه - إنَّهُ مشروعٌ مضمونُ النَّجاح! هائل! حضرتُكِ ستجلسينَ كملكةٍ في مكتبِ الإدارةِ وتُحَرِّكِينَ العبيدَ بضغطةِ زِرٍّ كهربائي: ستقفُ طوابيرُ الضيوفِ قُبالةَ عَرشِ جلالتِكِ لتتركَ في وَجَلٍ كنوزَها على طاولَةِ جلالَتِك - لَيسَ بمقدور حضرتِكِ أبداً تَصَوُّرُ ارتعادِ النّاسِ حينَ تمسِكُ أياديهم الفواتير - سَأجعَلُ الفواتِيرَ أكثَرَ دَسامةً بينما حضرَتُكِ تنثرينَ عليها سُكَّرَ ابتسامَتِكِ الأحلى - آه! فَلنَرحَلْ عن هذا المكان - ***يُخرِجُ جدولَ سيرِ المواصلاتِ***

من جيبه - حالاً، في القطارِ التّالي! سنصلُ إلى مالمو في الساعةِ السادسةِ وثلاثينَ دقيقةً، وإلى هامبورغ في الثامنةِ وأربعينَ دقيقةً من صباحِ الغدِ، ومن فرانكفورت إلى بازل في يوم واحد، ونأخذ قطارَ غوتهارد إلى كومو في غضونِ، دعيني أرى، ثلاثةِ أيام! ثلاثةُ أيام!

الآنسة:

هذا كلُّهُ حَسَنٌ! ولكن، يا جان - امنَحني الشّجاعة - قُل أنَّكَ تُحِبُّني! تعالَ وعانِقْني!

جان *متردداً*:

أريد - ولكنّني لا أُجرُؤ! طالما نحنُ هنا في المنزِل! أُحِبُّ حضرَتَكِ - دونَ شَكٍّ - أيُـمكِنُ لحضرتِكِ أن تَشُكّي بِهذا؟

الآنسة *بحياء، وأنوثةٍ حقيقية*:

حضرَتُكِ! - قُل أنتِ! لا حواجِزَ بيننا بعد الآن! قُل!

جان *مُعذَّباً*:

لا أستطيع! - ما زالت بيننا حواجِزُ، طالما بَقِينا في هذا المنزل - هناكَ الماضي، هناكَ الكونْت - لَمْ أقابِلْ أبداً في حياتي شخصاً شعرتُ بكلِّ هذا الاحترامِ له - تكفيني رؤيةُ قُفّازِه مُلقىً على كُرسيٍّ فقط، كي أشعرَ بنفسي ضئيلاً - يكفيني سماعُ الجَرَسِ المُعَلَّقِ هناكَ فقط، حتّى أُطوَى على نفسي كما يفعلُ حصانٌ خَجِل - وعندما أتطلّعُ الآنَ فأرى حذاء فروسيَّتِه منتصباً هناكَ باستقامةٍ وثباتٍ، فإنَّ ظهري يكادُ ينطَبِقُ! **يركُلُ *الحذاء*.** خرافاتٌ وأحكامٌ مُسبَقةٌ يُلَقِّنونَنا إيّاها منذ الطفولة - على أنَّ المرءَ بإمكانِهِ نسيانُها بسهولةٍ كذلك! لو اننا في بلادٍ أخرى فقَط، بحيثُ تكونُ جُمهوريّةً، لَحنى النّاس رؤوسَهم إجلالاً أمامَ بِزَّةِ بوّابِ بيتي، بلى، سيَحنُونَ رؤوسَهم! أمّا أنا فلَن أفعلَ ذلك! لَم تَلِدْني أمّي كَي أُحني رأسي، لأنَّ لي جوهَراً أبِيّاً، لي شخصيّةٌ، وبِمُجَرَّدِ إمساكي ذلكَ الغصنَ الأولَ سترينني أتسلَّقُ عالياً! أنا اليومَ خادِمٌ، ولكنّني في العام المُقبِل سأكونُ من المُلّاكِ، وبعدَ عشرةِ أعوامٍ سأكونُ إقطاعيّاً، وبعدئذٍ سَأُسافِرُ إلى رومانيا، وسأنالُ لَقَباً، ورُبّما -وأرجو ملاحَظَةَ قولي **رُبّما** - تَـنتَهي بيَ الحالُ كونتاً!

الآنسة:

جميلٌ، جميل!

جان:

أجَل، في رومانيا بإمكانِ المرء شراءُ لَقَبِ كونت، وهكذا فحضرَتُكِ ستُصبِحينَ كونتيسَةً أسوةً بي! كونتيسَّتي!

الآنسة:

وما الذي يُهِمُّني من ذلكَ كلِّهِ، وأنا الآنَ أرميهِ ورائي! قُل أنَّكَ تُحِبُّني، وإلّا - أجَل، وإلّا فما أنا؟

جان:

سأقولُها، ألفَ مَرَّةٍ - فيما بعد! إنَّما ليسَ هنا! وقبلَ كلِّ شيء، لا مشاعرَ، إنْ لَم نكُ قد خسرنا كلَّ شيء! يجبُ أنْ نتعاملَ مع الأمرِ بِبُرودٍ، مثلَ العُقَلاء. ***يُخرِجُ سيجاراً، يبتُرُ رأسَهُ ويُشعِلُهُ.*** إجلسي هناكِ! وسأجلسُ هنا، ونتحدّث، كأنَّ شيئاً لَم يَكُن.

الآنسة *بِقُنوط*:

أوه، يا إلهي! ألَيسَت لَدَيكُم أيَّةُ مَشاعِر؟

جان:

أنا؟ لا أحَدَ في الدُنيا يفيضُ مشاعرَ مثلي؛ ولكِنَّني أستطيعُ لَجمَ نَفسي.

الآنسة:

لقد أوشَكتَ تُقَبِّلُ حذائي للتَوِّ - والآن!

جان *بِصلابة*:

نعم، كانَ ذلكَ في حِينِه! الآنَ لَدَينا أشياءُ أخرى نُفَكِّرُ بها.

الآنسة:

لا تُكلِّمني بهذِه القَسوَة!

جان:

كلّا، وإنّما بِحِكمة! حماقةٌ وارتُكِبَت، وعلينا ألّا نَرتَكِبَ المزيد! سيأتي الكونتُ في أيّةِ لحظةٍ، وعلينا قبلَ ذلك أنْ نُقرِّرَ مصيرَنا. كيفَ بَدَتْ خُطَطي المستقبليّةُ لحضرَتِك؟ هلْ راقَتْ لَحضرتِكِ؟

الآنسة:

بَدَتْ لي راجِحَةً حقّاً، ولكنَّ عندي سؤالاً وحيداً: مشروعٌ ضخمٌ كهذا بحاجةٍ إلى رأسِ مالٍ كبير، فهل تملكونَه؟

جان يمضغُ سيجارَه:

أنا! أكيدٌ طَبعاً! لديَّ مهاراتيَ التّخَصُّصيّة، وخِبرَتي العظيمةُ ومعرفتي باللغات! وهذا رأسُ مالٍ وافٍ، باعتقادي!

الآنسة:

ولكنّكُم، لقاءَ كُلِّ ما ذكرتُم، لن تستطيعوا شراءَ تذكرةِ قطارٍ حتّى.

جان:

هذا صحيحٌ وأُوافِقُ حَضرَتَكِ عليهِ؛ ولكنّني لهذا أبحثُ عنْ صاحبِ في المشروع يمكنهُ دعمُ رصيدي!

الآنسة:

وأينَ ستَجِدُونَهُ في هذه العُجالة؟

جان:

حضرَتُكِ مَن سيُوجِدُهُ، إنْ أرَدْتُم أن تكونوا شريكَتي!

الآنسة:

ليسَ هذا بمقدوري، وأنا نفسي لا أملك شيئاً. ***توَقُّف.***

جان:

إذَنْ فالأمرُ كلُّه سيَتَداعى...

الآنسة:

وَ.....

جان:

ستُصبِحُ كما أمسَينا!

الآنسة:

أتَظُنُّونني أبقى تحتَ هذا السَّقفِ عشيقةً لَكُم؟ أتَظُنُّونني أريدُ للنّاس أن يُشيروا بسبّاباتِهم نحوي، وأنَّ بإمكانِيَ النَّظَرَ في وَجْهِ أبي بعد ذلك؟ كلّا! خُذني بعيداً عن هنا، بعيداً عن الإهانةِ والعار! أوه، ماذا فَعَلتُ، يا إلهي، يا إلهي! ***تبكي.***

جان:

هكذا إذَنْ، الآنَ يبدأُ عزفُ هذه النَّغمة! - حضرتُكِ تتساءلينَ عمّا فعلتِ؟ هو ما فَعلَتْهُ كثيراتٌ مِنْ قَبلُ!

الآنسة *تصرُخُ بِتَشَنُّج:*

والآنَ تَحتَقِرُونني! - إنّني أسقُطُ، إنني أسقُط!

جان:

أسقُطِي نَحوِي، لأرفَعَ حضرَتَكِ بعد ذلك!

الآنسة:

أيُّ شلطانٍ مُريعٍ جذبني إلَيكُم؟ أهوَ انقِيادُ الضَّعيفِ إلى القَويِّ؟ انجذابُ مَنْ يسقُطُ إلى مَنْ يَرتَقي! أمْ أنّهُ كانَ الحُب؟ أهذا حُب؟ أتَعرفُونَ ما الحُب؟

جان:

أنا؟ بلى، وعلى ذلكَ أُقسِم: أتَظُنُّ الآنسةُ أنني لمْ أعرِفْهُ من قبلُ؟

الآنسة:

يا لِهذا اللسانِ وما يقول، ويا لهذا الفِكْرِ وما يُضمِر!

جان:

هذا ما تَعَلّمتُ، وهذا أنا! لا تَنفَعِلي الآنَ ولا تُمَثّلي دورَ الرِّفعة، فما عادَ أحدُنا خيراً منَ الآخر! - هيّا، يا صغيرَتي، تَعالِي لأدعوَكِ إلى كأسٍ أُخرى! ***يفتَح دُرجَ الطاولةِ ويُخرِجُ قنّينَةَ النّبيذِ، ويملأُ كأسينِ مُستعمَلتينِ.***

الآنسة:

من أينَ لَكُمْ هذا النّبيذِ؟

جان:

مِنَ القَبو!

الآنسة:

بورغون(20) والِدي؟

جان:

ألا يَصلُحُ للنّسيبِ؟

الآنسة:

بينما أنا أشربُ الجِعَة! أنا!

جان:

إنّما هو دليلٌ على أنّ ذوقَ حضرَتِكِ أدنى مِنْ ذَوقي!

الآنسة:

لِصّ!

جان:

أتَنوِي الآنسةُ الوشايةَ؟

الآنسة:

آه، آه! وشريكةٌ في الجريمةِ لِلِصّ منازِل! هلْ كنتُ سَكرى، أم أنني سرتُ في نومي في هذهِ الليلة؟ ليلةِ منتصف الصّيف! احتفالِ الألعابِ البريئة...

جان:

البريئة، همممم!

الآنسة *تسيرُ جيئةً وذهاباً*:

أهناكَ إنسانٌ على وجه الأرضِ بِمِثلِ تعاستي في هذه اللحظة؟

جان:

لماذا حضرتُكِ تعيسة؟ بعدَ ظَفَرٍ كهذا! فَكِّري بكريستين التي في الدّاخل! ألا تعتقدينَ أنّ لَها مشاعرَ هيَ الأخرى؟

الآنسة:

كنتُ أعتقِدُ ذلكَ للتوّ، ولكنّني لم أعُد أفعل! كلّا، الدّنِيءُ دَنِيء...

جان:

والمومِسُ مُومِس!

الآنسة تجثو على ركبتَيها وقبضتاها مشدودتان:

آه، إلهي الذي في السّماء، ضَع نهايةً لِحياتي الشّقيّة! خُذني بعيداً عن هذه القذارةِ التي أغرَقُ فيها! أنقِذني! أنقِذني!

جان:

لا يُمكِنُني إنكارُ الألمِ الذي أشعرُ بِهِ لأجلِ حضرَتِك! حينما استلقيتُ في مصطبة البصَل ورأيتُ حضرَتَكِ في حديقةِ الوَرد... حسناً، سأقولُها الآنَ... راودتني الأفكارُ القبيحةُ التي تراوِدُ الصِّبيانَ جميعاً.

الآنسة:

وأنتم مَن أرادَ الموتَ لِأجلي!

جان:

في خزّانِ الشوفانِ؟ كان ذلك مُجرَّدَ لَغو!

الآنسة:

وكذِباً بالتّالي!

جان *بدأ النُّعاس يُغالِبُه:*

تقريباً! لقد قرأتُ القِصّةَ في جريدةٍ عن مُنَظِّفِ مداخن، انتهى به الحال راقِداً في مخزنِ حطبٍ فَرَشَهُ باللِّيلَكِ، لأنَّهُ حُكِمَ علَيهِ بالخضوع لِمَصلحةِ رعايةِ الأحداث...

الآنسة:

حقّاً؟ فأنتم من هذه الشاكلة...

جان:

وأيّةَ قِصّةٍ عسايَ أختَلِقُ إذَن؟ ما مِن وسيلةٍ يصطادُ الرجلُ بها امرأةً أنجَعُ مِنَ أغاني جارِهِ!

الآنسة:

خسيس!

جان:

Merde! (21)

الآنسة:

ها قَد اطّلَعتُم على ظَهرِ الصّقر..

جان:

ليسَ تماماً على **ظَهرِه**...

الآنسة:

وأنا مَنْ كِدتُ أُصبِحُ غُصنَكَ الأوّل...

جان:

لكنَّ الغُصنَ كانَ عفِناً..

الآنسة:

كنتُ سأصبِحُ واجِهَةَ الفندُق...

جان:

وأنا الفندُق...

الآنسة:

أجلِسُ إلى مَكتَبِكُم، فأجذبَ نُزلاءَكُم، وأُزَوِّرَ حساباتِكُم...

جان:

كنتُ سأفعلُ ذلك بنفسي...

الآنسة:

أنْ تكونَ نَفْسُ إنسانٍ بهذا العُمقِ مِنَ القذارةِ!

جان:

نَظِّفيها إذَنْ!

الآنسة:

أيُّها الخدّامُ، الحقيرُ، هُبَّ عندما أتَكَلَّم!

جان:

يا عشيقةَ الخَدّامِ، وعاهرةَ الحقيرِ، إخرَسي وَاخرُجي من هنا. أمِثلُكِ تأتي كي تَتَّهِمَني بالوضاعة؟ لم يبدُرْ يوماً، عن صِنوٍ لي حتّى، سلوكٌ بوضاعةِ سلوكِكِ طوالَ هذه الليلةِ. أتَظُنّينَ أنَّ خادِمَةً ما تَتَحرَّشُ بالرِّجالِ كما تفعلينَ؟ هل سَبَقَ ورأيتِ فتاةً مِنْ طَبَقَتي تبتَذِلُ نَفسَها بهذهِ الطَّريقة؟ لمْ أرَ شيئاً كهذا سِوى بينَ الحيواناتِ والنِّساءِ السّاقِطاتِ!

الآنسة *مُحَطَّمَةً*:

هذا حق؛ إضرِبْني، أركُلني، لا أستَحِقُّ ما هوَ خيرٌ مِنْ ذلك. أنا وضيعة، إنَّما ساعِدني! ساعِدني للخروجِ من كُلِّ هذا، إن كانَتْ هُناكَ وسيلة!

جان *بِنَبرَةٍ ألطَف*:

لا أُريدُ إحراجَ نفسي بالتَّنَصُّلِ مِنْ حصَّتي في شَرَفِ الإغواءِ؛ إنَّما أتَظُنُّ الآنسَةُ أنَّ شخصاً في مكاني كانَ سَيَجرُؤُ على رَفعِ بَصَرِهِ نَحوَها، لو لَمْ تكُ قد بادَرَتْ بِنَفسِها؟ إنَّ العَجَبَ ما زالَ يَتَمَلَّكُني...

الآنسة:

والفَخرُ كذلك...

جان:

لِمَ لا؟ على أنّني يجبُ أن أعترِفَ بِأنَّ النّصرَ كانَ أسهَلَ مِنْ أن أفقِدَ بِسَبَبِهِ صوابي.

الآنسة:

اِضرِبْني أكثر!

جان ينهض:

كلّا! بل فَلْتَغفِرْ لِيَ الآنِسَةُ ما قُلتُ! أنا لا أضرِبُ مَنْ جُرِّدَ مِن سلاحِهِ، وعلى الأخَصِّ النّساء. ليسَ بِوسعيَ إنكارُ أنّني فَرِحتُ من ناحيةٍ لأنني أدرَكتُ أنَّ ما انبَهَرنا بِهِ من هناكَ في الأسفَلِ كانَ لُكاثاً(22) لا ذَهَباً، ولأنني كذلك رأيتُ أنَّ الصَّقرَ كانَ هو الآخرُ رماديَّ الظَّهرِ، وأنَّ بياضَ الوَجنَةِ الناعمَةِ كانَ مِنْ مساحيقِ التّجميل، وأنَّ السَّوادَ يُمكِنُ أنْ يَحُدَّ أطرافَ الأظافرِ المُنَعَّمَةِ، وأنَّ المِنديلَ كانَ قَذِراً رَغمَ العِطرِ الذي يُضَمِّخُهُ...! ولكنّني من ناحِيةٍ أخرى يُؤلمني ما رأيتُ مِن أنَّ ما جَهِدتُ سَعْياً إليهِ لَم يَكُنْ أعلى شأناً، أو أرسَخَ. يؤلِمُني أن أرى حضرَتَكِ غارِقَةً إلى هذا العُمقِ، وأنَّ حضرتَكِ أدنى بِكثيرٍ مِنْ الفتاةِ التي تَطهو طعامَكِ. يؤلِمُني ذلكَ كَرُؤيَةِ المَطَرِ وهو يمزّقُ أزهارَ الخريفِ بِجَلْدِ سياطِهِ لِيُحيلَها إلى قذارةٍ لا أكثر.

الآنسة:

تتكلّمُون وكأنّكم قد تفوّقتُم عَلَيَّ فِعلاً!

جان:

وهو كذلكَ بالفِعل. كما تَرَينَ حضرتُكِ فإنَّ من الممكنِ أنْ أجعَلَ من حضرتِكِ كونتيسةً، ولكِنَّ حضرتَكِ لن تستطيعي أبداً أن تَجعَلي مِنّي كونتاً.

الآنسة:

ولكِنّني وُلِدتُ لأبٍ مِنَ النّبلاءِ، وهذا ما لَنْ تَكونوهُ أبَداً!

جان:

هذا صحيح: ولكنني قد أصبحُ أباً لِنُبلاءَ - إذا ما...

الآنسة:

ولكنكم لِصٌ؛ وما أنا كذلك.

جان:

ليسَ اللِصُّ أشنعَ ما يُمكِنُ أنْ يَكونَهُ المرءُ! هناكَ ما هو أسوأ! وبالمناسبةِ؛ عندَما أخدمُ في منزلٍ ما، فإنني أرى نفسي فَرداً مِنَ العائلة، كواحدٍ من أطفالِها، وليسَ مِنَ السَّرِقَةِ أنْ يخطِفَ طِفلٌ ثَمَرَةً واحِدَةً من شُجَيراتٍ مُتخَمَةٍ بالتُوت! ***تستيقظُ عواطِفُه الجَياشةُ ثانيةً.*** آنسة جولي، حضرتُكِ امرأةٌ مُبَجَّلَةٌ، وأكثرُ بِكَثيرٍ مِمّا يستَحِقُّهُ مَنْ هو مِثلي! لَقَدْ أَذهَبَ رُشدَكِ طَيشٌ ما، وتريدينَ مواراةَ الخَطَأِ عبرَ إيهامِ نَفسِكِ بأنَّ حضرتَكِ تُحِبّينَني! حضرتُكِ لا تُحِبّينَني، إلا ما قَد يكونُ مِن أنَّ شَكلي قد جَذَبَكِ - وفي هذه الحال فإنَّ غرامَ حضرَتِكِ ليسَ خَيراً مِن غرامي - ولكِنَّني لَنْ أَقْنَعَ أبَداً بأن أكونَ حيوانَ متعتِكِ لا غيرَ، ولنْ أستَطيعَ أبداً إيقادَ الحُبِّ في قلبِكِ!

الآنسة:

أواثقٌ أنتَ من ذلك؟

جان:

تَقصدينَ أنَّ ذلكَ مُمكِن! أن أُحِبَّ حضرتَكِ، فَنَعم، بدونِ شكٍ: حضرتُكِ جميلةٌ، وَراقِيَةٌ، ***يقتربُ منها ويُمسِكُ يَدَها***، مُتَعَلِّمَةٌ، وَوَدُودةٌ حينَ تريدينَ، واللهيبُ الذي تؤجِّجينَ في القلبِ لا يَخمَدُ، على الأغلَبِ، أبَداً. ***يُحيطُ خصرَها بذراعِه.*** حضرتُكِ أشبَهُ بِنَبيذٍ مُتَبَّلٍ بِبَهارٍ لاذِعٍ، وقُبلَةٌ مِنكِ... ***يُحاوِلُ أخذَها إليه، لكِنَّها تنتَزِعُ نَفسَها بِبُطءٍ مِن إسارِه.***

الآنسة:

أترُكني! - لَنْ تَفوزَ بي بهذه الطَّريقة!

جان:

كيفَ إذَن؟ - إنْ لَم يَكُن بهذهِ الطَّريقة؟ **لا** بِرَقيقِ اللفسِ وعَذْبِ الكلامِ، **ولا** بإبداءِ الحِـزمِ على المُستَقبَل! **كيفَ** إذَن؟

الآنسة:

كَيفَ؟ كيف؟ لا أعرِفُ! إطلاقاً! إنَّني أمقُتكم مَقتِي للجرذانِ، ولكنَّني **لا** أستطيعُ الهُروبَ مِنكم!

جان:

اهرُبي مَعي!

الآنسة *تضبِطُ هيئتَها*:

نهربُ؟ بلى سنهربُ! - ولكِنَّني مُتعَبَةٌ جِدّاً! أعطِني كأسَ نَبيذ! ***يَصُبُّ جان النَّبيذَ في كأسِها.***

الآنسة *تنظُرُ إلى ساعتِها*:

ولكِنَّنا سنتكلّمُ أوّلاً: لا يَزالُ لَدَينا القليلُ مِنَ الوَقتِ. ***تشربُ كأساً، وتَمُدُّ يَدَها بالقَدَحِ طالِبةً المَزيدَ.***

جان:

لا تُفرِطي في الشُّربِ هكذا، وإلا فحضرتُكِ ستسكرين!

الآنسة:

وما الضَّيرُ في ذلك؟

جان:

ما الضَّيرُ في ذلكَ؟ إنَّ السُّكرَ من شأنِ الرِّعاع! - حسناً، ما الذي أرَدتُم قَولَهُ لي؟

الآنسة:

سوفَ نَهرُبُ! ولكنْ علينا أنْ نَتَكَلَّمَ أوّلاً، أعني أنّني أنا مَنْ سيَتَكَلَّمُ، فَلَقَدْ كانَ الكلامُ كُلُّهُ لَكُمْ حتّى الآن. لَقَدْ سَرَدْتُم قِصَّةَ حياتِكُم، والآنَ أُريدُ أن أحكي قصّتي، حتّى نَتَعَرَّفَ بَعضُنا إلى بَعض كما ينبَغي، قبلَ أنْ نَبدأ رِحلَتَنا مَعاً.

جان:

لَحظَةً! آسِف! فَلتُفَكِّر الآنسةُ مَلِيّاً، لِئلّا تَندَمَ بَعدَئذٍ، كونَها بَخَسَتْ ثَمَنَ أسرارِ حياتِها هكذا!

الآنسة:

أَلَستُمْ صديقي؟

جان:

بَلى أحياناً! إنّما لا تَثِقُوا بي.

الآنسة:

أنتُمْ لا تَعنُونَ ذلك. - وبالمناسبةِ، فما مِنْ أحَدٍ لا يعرفُ أسراري! - كما تَرَوْنَ، فَقد كانت أمّي مِنْ أُصولٍ مُتواضعة، لِأُناسٍ بُسَطاءَ جِدّاً. كانت قَدْ تَرَبَّتْ على تَعاليمِ زَمَنِها عَنِ المُساواةِ وَحُرِّيَةِ المَرأةِ وما إلى ذلكَ كلِّهِ، وكانَتْ لديها مُمانَعَةٌ قاطِعةٌ بشأنِ الزَّواجِ. ولذلكَ فَعِندَما تَقَدَّمَ أبي لِخِطبَتِها، أجابَتْ بأنَّها لا تُريدُ أبَداً أنْ تَكونَ زَوجَةً لَهُ، ولكن... هذا ما انتَهَتْ إليهِ حالُها رَغْمَ ذلك. وجِئتُ إلى الدُّنيا - ضِدَّ رَغبَةِ أُمّي على ما فَهِمتُ. ثُمَّ أَنشأتني أمّي على أنْ أكونَ فِطرِيَّةً وَفوقَ ذلكَ أنشأتني على تَعَلُّمِ كُلِّ ما يَتَعلَّمُهُ الصّبيَةُ؛ أنْ أُصبِحَ مِثالاً على كونِ المَرأةِ نَظيراً للرَّجُلِ في كلِّ شيء. كانَ عَلَيَّ أنْ أرتدي ثِيابَ الصِّبيَةِ، وأن أتعلَّمَ كيفَ أسوسُ الخَيلَ، إنَّما دونَ دخولِ الإسطَبل: كانَ يجبُ أنْ أُمَشِّطَ وَبَرَها، وأن أُسرِجَها وأركبها للصَّيدِ، بلى وحتّى أنْ أُحاولَ تَعَلُّمَ الحَرثِ! وفي المَزرَعةِ أُلزِمَ الرِّجالُ بأداءِ مهامِّ النِّساءِ، والنِّساءُ بِمهامِّ الرِّجالِ - حتّى كادَ الخرابُ، جرّاءَ ذلكَ، يحلُّ بالمَزرَعةِ وأُضبَحنا أُضحوكةً في الجوارِ. في النِّهايَةِ

أفاقَ أبي مِنْ تأثيرِ السّحرِ وقامَ بانتِفاضةٍ، كي يَتَغَيَّرَ كُلُّ شيءٍ إلى ما ناسبَ رَغبَتَهُ. لكِنْ أمّي أصيبَتْ بِداءٍ ما - لا أعرِفُ أيّ داءٍ كانَ - لكنّها كانت تُصابُ دائماً بِتَشَنُّجاتٍ، تَختَبئُ معها في العِلِّيّةِ أو في الحديقةِ، وكمْ قَضَتْ الليلَ في الخارِجِ بسببِها. ثُمّ حَدَثَ الحريقُ الكبيرُ الذي سَمِعتَ عَنْهُ. احترَقَ المَنزِلُ والإسطبلُ والزَّريبةُ، وذلكَ تحتَ ظُروفٍ أثارَتْ شُبهَةَ العَمْدِ في وقوعِ الحريق، حيثُ صادَفَ وقوعُ حادثتِهِ اليومَ الذي تلا نهايةَ عقدِ التأمينِ، بينَما أُخِّرَتْ عقودُ التأمينِ الجديدةُ، التي كانَ أبي قَدْ أرسلَها، بسببِ إهمالِ السّاعي، فَلَمْ تَصِلْ إلى المحكمةِ في موعِدِها. ***تملأُ كأسَها وتشرب.***

جان:

لا تَشرَبي أكثرَ!

الآنسة:

أوه، وما الضَّيرُ في ذلك؟ - كُنّا بلا مأوىً، مُرغَمينَ على النَّومِ في العَرَباتِ. لَمْ يَعرِفْ أبي مِنْ أينَ يأتي بالمالِ لبناءِ المَنزِلِ ومُلحقاتِهِ. عندئذٍ نصَحَتْهُ أمّي بأنْ يَقتَرِضَ مِنْ صديقِ طفولةٍ لَها، امتلَكَ معمَلاً للآجرّ على مَقرُبَةٍ مِن هُنا. اقتَرَضَ أبي، دُونَ أنْ يكونَ مُلزَماً بِدَفعِ فائدةٍ عن القَرضِ، ممّا أثارَ عَجَبَه. وهكذا شُيِّدَتْ المَزرَعةُ! - ***تشربُ ثانيةً.*** أتَعلَمُ مَنْ أحرَقَ المَزرَعَةَ؟

جان:

السَّيِّدَةُ والِدَةُ حضرَتِك!

الآنسة:

أتَعلَمُ مَنْ كانَ صاحبَ معمَلِ الآجُرّ؟

جان:

عَشيقُ والِدَةِ حضرَتِك؟

الآنسة:

أتَعلَمُ من كانَ صاحبَ المالِ؟

جان:

قليلاً منَ الصّمتِ - لا لستُ أعرف.

الآنسة:

كانَ مالَ أمّي!

جان:

أيّ مالُ الكونت، إنْ لَمْ يَكنْ هناكَ اتّفاق!

الآنسة:

لَمْ يَكنْ هناكَ اتّفاق! - كانت لأمّي ثَرْوَةٌ صغيرةٌ لَمْ تُرِدْ لِأبي أنْ يَتَحَكّمَ فيها، فَأودَعَتْها لدى - الصّدِيق!

جان:

الذي استولى على المال!

الآنسة:

صحيحٌ تماماً! احتَفَظَ بالمال! - وقد بَلَغَ هذا كُلُّهُ عِلْمَ والِدي. كانَ عاجِزاً عَنْ فِعلِ شيء، فلا هو يستطيعُ دَفْعَ دَينِ عشيقِ زوجَتِهِ، ولا هو قادِرٌ على إثباتِ أنّها أموالُ الزوجَة! - كانَ ذلكَ انتقامَ أُمّي لأنَّهُ فَرَضَ سَطوَتَهُ في المنزل. - عِندَئذٍ كاد يُطلِقُ النّارَ على نَفسِهِ! - وقد أُشيعَ أنّهُ فَعَلَ وأخْفَقَ! ولكنّهُ نَجا وعاشَ، أمّا أمّي فكانَ عليها التّطَهُّرُ مِن أفعالِها! ومَرّت عليّ خَمسُ سِنينَ في تلك الحال، ولكُم أن تتصَوَّروا! تَعاطَفتُ معَ أبي، ولكِنّني رغمَ ذلكَ انْحَزتُ لِأمّي، وما كنتُ في حينِهِ أعْرِفُ شيئاً عن المُلابَساتِ. مِنها تَعَلّمتُ كراهيةَ الرّجالِ وسوءَ الظّنّ بِهِم - إذْ أنّها كَرِهَتْ مَعشَرَ الرّجالِ بَعدَ ما جرى - وقد أقْسَمتُ لَها، أن لا أُصبِحَ يوماً ما أَمَةً لِرَجُل.

جان:

ثُمَّ خُطِبْتم لِمأمورِ الضَّرائبِ!

الآنسة:

وتَحديداً، لِكي يُصبِحَ عَبدي.

جان:

وهذا ما لَمْ يُرِدْهُ؟

الآنسة:

بل أرادَ، ولكِنَّهُ لَمْ يَنَلْ مُرادَهُ! فَقَدْ مَلَلْتُه!

جان:

رأيتُ ذلكَ - في فناء الإسطبل؟

الآنسة:

ماذا رأيتُم؟

جان:

ما رأيتُه - كيفَ أنَّهُ فَسَخَ الخِطبَةَ.

الآنسة:

هذا باطِل! أنا مَنْ فَسَخَ الخِطبَةَ! هل قالَ أنَّهُ هو مَن فَعَلَ، ذلكَ الوضيع؟

جان:

لَعلَّهُ لَمْ يَكُنْ وضيعاً! أتكرهينَ معشَرَ الرِّجال، يا آنسة؟

الآنسة:

نَعَم! - غالِباً! ولكنَّني أحياناً، حينَ يأتي الضَّعفُ، آهٍ، اللعنة!

جان:

هل تَكرَهُني الآنسةُ كذلك؟

الآنسة:

بِلا حَدّ! بِوِدّي لو أقتُلُك مثلَ حيوانٍ...

جان:

كما يهرَعُ المَرءُ لِإطلاقِ النّارِ على كَلبٍ مَسعورٍ. ألَيسَ كذلك؟

الآنسة:

تماماً!

جان:

ولكن، لا شيءَ هُنا لِتُطلِقَ الآنسةُ النّارَ بِهِ - وما مِن كَلبٍ! فماذا سَتَفعلُ إذَن؟

الآنسة:

نُسافِر!

جان:

كَي يعَذِّبَ بَعضُنا بَعضاً حتّى المَوتِ؟

الآنسة:

كلّا - كَي نَستَمتِعَ، يومينِ، ثمانيةَ أيّامٍ، طالما وَسِعَنا أن نستَمتِعَ، ثُمَّ - نَموت.

جان:

نَموت؟ يا لِلبلاهة! أرى مِنَ الأفضلِ إذَن أن نُؤسِّسَ فُندقاً!

الآنسة *دونَ أن تُصغي لِجان:*

عندَ بُحيرَةِ كومو، حيثُ الشَّمسُ مُشرِقَةٌ دوماً، والبُرتُقالُ النارِيُّ وشَجَرُ الغارِ بِخُضرَتِهِ حينَ تَحُلُّ أعيادُ الميلادِ.

جان:

بُحيرَةُ كومو بُؤرَةُ أمطارٍ، ولَمْ أرَ أيَّ بُرتُقالٍ هناكَ سوى لدى العَطّارينَ(23). ولكِنَّها قَرْيَةٌ يطيبُ فيها مقامُ الغُرَباءِ، ففيها بُيوتٌ فارِهةٌ تُؤَجَّرُ للعُشّاقِ، وتِلكَ تِجارَةٌ رابِحَةٌ - أتَعرِفُ الآنسةُ لماذا؟ - حسناً؛ إنَّهُم يوقِّعونَ عُقودَ استئجارٍ لِسِتَّةِ أشهُرٍ - ثُمَّ يُغادِرُ العاشقانِ بعدَ ثلاثةِ أسابيعَ!

الآنسة *بِسَذاجَة*:

لِماذا بعدَ ثلاثةِ أسابيعَ؟

جان:

يَدُبُّ الخلافُ بَينَ العاشقَينِ طَبعاً! ولكنَّ الإيجارَ يُدفَعُ بِتَمامِهِ! ثُمَّ تُؤَجَّرُ البُيوتُ ثانِيَةً، وهكذا دوالَيكَ، فالحُبُّ وافِرٌ - على أنَّهُ لا يَدومُ طويلاً!

الآنسة:

ألا تُريدُونَ الموتَ مَعي؟

جان:

أنا لا أُريدُ أنْ أموتَ بَتاتاً! أوّلاً لأنني أُحِبُّ الحياةَ وثانياً لأنني أعتَبِرُ الانتحارَ جريمةً في حَقِّ **المشيئةِ**، التي مَنَحَتنا الحياةَ!

الآنسة:

أوَ تُؤمِنُونَ بالرَّبِّ، **أنتم**؟

جان:

نَعَم بالطَّبعِ أؤمِن! وأذهَبُ إلى الكنيسةِ بينَ أحَدٍ وآخَر. - بِصَراحَةٍ، لَقَدْ سَئِمتُ هذا

كلّهُ، وسأذهبُ للنوم.

الآنسة:

حقّاً؟ وتظُنّونَ أنّني أسمَحُ لنفسي بالاكتفاء بهذا؟ أتعرِفُونَ بماذا يَدينُ الرّجُلُ لِلمرأةِ التي أخزاها؟

جان *يتناولُ محفَظَةَ نقودِه ويُخرِجُ قِطعَةَ نَقدٍ فضّيّةً ويُلقيها على الطاولة:*

تفضّلي! لا أريدُ أنْ أكونَ مَديناً بِشَيء!

الآنسة *دونَ أنْ تُبدِي مُلاحَظَةَ الإهانة:*

أتَعلَمُونَ ما يَنُصُّ عليه القانونُ...

جان:

لا ينُصُّ القانونُ مَعَ الأسَفِ على عقابٍ ما لامرأةٍ تُغوي رَجُلاً!

الآنسة *كما سبقَ:*

أتَرَونَ مَخرَجاً آخرَ سوى أنْ نَرحَلَ، أنْ نتزَوّجَ فَننفَصِلَ؟

جان:

وإذا رَفَضتُ هذا الانحِدارَ؟

الآنسة:

الانحِدار...

جان:

نعم، إنحداري أنا! كما تَرى الآنسة فإنّني أرفَعُ منها أرومةً(24)، إذْ لَيسَ في أقاربي من جُرِّمَتْ بِحريق!

الآنسة:

وما أدراكُم بذلك؟

جان:

ليسَ بِوسعِ حضرتِكِ ادّعاءُ العَكسِ، فليسَت لَدَينا شَجَرَةُ عائلةٍ أُخرى - عدا تلك التي لَدى الشرطة(25)! أمّا شَجَرَةُ عائلتِكُم فقد اطّلَعتُ عليها في كتابٍ وجدتُهُ علي طاولَةِ البَهو. أتَعرِفُ الآنسةُ ما كانَ جَدُّها الأكبر؟ كانَ طَحّاناً، نامَ عندَ زوجَتِهِ المَلِكُ ليلَةً أثناء حَربِ الدّنمارك. أرومةٌ كَهذهِ لا أدّعيها! ليسَتْ لي أيّةُ أرومةٍ أساساً، ولكنْ بمستطاعي أن أُصبِحَ أرومةً بنفسي!

الآنسة:

هذا جزائي على فَتحِ قَلبي لِمَنْ لا يستحقُّ ذلك، لأنني مَنَحتُ شرَفَ عائلتي...

جان:

بلْ خِزْيَها! - بَلى، كما ترى الآنسةُ، سبَقَ وَقُلْتُ لِحضرَتِك! على المَرءِ أن لا يَشرَبَ، لأنَّهُ عندئذٍ سيَتَكَلَّمُ! **والمفروضُ** أن لا يَتَكَلَّمَ!

الآنسة:

آهِ، كمْ أنا نادِمةٌ! - كم أنا نادِمة! - ولو انّكم، على الأقلِّ، كنتم تُحِبُّونني!

جان:

للمَرَّةِ الأخيرةِ - ماذا تقصدونَ؟ أتريدُ الآنسةُ أن أبكي؟ أن أقفِزَ فوقَ سوطِ الفروسية؟ أن أُقَبِّلَكُم؟ أنْ أُغَرِّرَ بِكُم للذهابِ إلى بُحيرَةِ كومو لثلاثةِ أسابيعَ، ثُمَّ... ماذا تريدونَ أنْ أفعل؟ ماذا تريدونَ؟ بدأ الأمرُ يُصبِحُ مُهيناً! إنَّما هذه هي نتائجُ التَّوَرُّطِ مَعَ النّساء! آنسة جولي! إنّني أرى أنَّ حضرتَكِ تعيسة، أعرِفُ أنَّ حضرَتَكِ تُعانِينَ، ولكنّني لا أستطيعُ فَهمَكم! نحنُ لا نَتَكَلَّفُ هكذا. لا كراهِيَةَ بَيننا! نُحِبُّ كَمَنْ يَلْهو، حينَ يمنحنا العمَلُ فُسحَةً مِنَ الوَقتِ، ولكنّنا لا نجدُ الوقتَ لذلك طوالَ النّهار وطوالَ الليلِ مثلَكُم! إنّني أرى أنَّ حضرَتَكِ مريضة؛ حضرتُكِ مريضةٌ حقّاً!

الآنسة:

يجبُ أنْ تكونوا طَيِّباً مَعي. أنتم الآنَ تتكلّمُون كإنسان!

جان:

نَعَم، ولكِنْ فَلْتَكُن الآنسةُ نفسُها إنسانةً! حضرتُكِ تَبصُقينَ عليّ وتمنعينني مِن مَسْحِ البصقة - لِتَرتَدَّ إليكُم!

الآنسة:

ساعِدني، ساعِدني: قُلْ لي فَقَط ما يجبُ أنْ أفعَل - إلى أينَ أمضي؟

جان:

بِحَقِّ اسمِ المسيح، لو عَرَفتُ لَفَعَلْتُ!

الآنسة:

لقد كُنتُ مخبولةً، لَقَدْ كنتُ مجنونةً، ولكنْ ألا توجَدُ وسيلةٌ للخلاص؟

جان:

أمكُثي واهدأي! لا أُحَدَ يَعرِفُ شيئاً!

الآنسة:

مُستَحيل! النّاس تَعرِفُ وكريستينُ تَعرِفُ!

جان:

إنَّهم لا يَعرِفونَ، وليسَ بإمكانِهم أبداً أن يظُنّوا شيئاً من هذا القَبيل!

الآنسة *مُتلكّئةً*:

ولكنْ، - قَدْ يَحدُثُ ذلكَ ثانِيَةً!

جان:

هذا صحيح!

الآنسة:

والعواقِب؟

جان *مرتعباً*:

العواقِب! - أينَ كانَ رأسي بحيثُ لَمْ أفَكِّرْ في ذلك؟ حسناً، ما مِنْ حَلٍّ سوى - الرَّحيل! فوراً! لَنْ أُرافِقَ حضرَتَكِ، فذلك يعني خُسرانَ كُلِّ شيءٍ، بلْ سَتَرحَلُ الآنسةُ وَحدَها - بَعيداً - إلى أيِّ مكان!

الآنسة:

وَحدي؟ إلى أين؟ - لا أستَطيعُ ذلك!

جان:

يَجبُ عليكم ذلك! وَقَبلَ أنْ يَعودَ الكونت! إنْ بَقِيَت الآنسةُ، فكلانا يعلمُ كيف ستجري الأمور! حينَ يُخطِئُ المَرءُ، فَلَيسَ لَهُ سوى الاستمرارِ، فالضَّرَرُ قَدْ وَقَعَ بالفعل... وهكذا يُصبِحُ المرءُ أجرأ فَأجرَأ - وفي النهايةِ يُفتَضَحُ أمرُه! لذا ارحَلي! اكتُبي بَعدَ ذلكَ للكونت واعتَرفي بكلِّ شيء، ما عَدا أنَّني كنتُ الفاعِلَ! وهذا ما لَنْ يستطيعَ تخمينَه، كما لا أظُنُّ أنَّهُ سيكونُ حريصاً على مَعرِفَته!

الآنسة:

سأرحَلُ، إذا رافَقْتَني!

جان:

أأنتِ مخبولة، يا امرأة؟ الآنسة جولي تهربُ مَعَ خادِمِها! هذا ما سَتَكتبُهُ الجرائدُ بعدَ غَدٍ وما لنْ يَنجو مِنهُ الكونت أبَداً!

الآنسة:

لا أستطيعُ الرّحيلَ! لا أستطيعُ البَقاء! ساعِدني! أنا مُتعَبةٌ، تَعَباً لا حدّ له - مُزني! اِجْعلني أتحرّك، فَما عُدتُ قادِرَةً على التّفكيرِ، ولا على فِعلِ شيءٍ...!

جان:

أتَرى الآنسةُ أيّةَ حُثالةٍ أنتم؟ لِمَ التّباهي والخُيَلاء وكأنّكم آلهةُ الخَلْق؟ حسناً: سآمُرُكِ! اصعدي وغيّري ثيابَكِ، وتَزَوّدي بمالٍ للسّفَر وانزلي عائدةً إلى هنا!

الآنسة *بنبرةٍ خفيضة:*

رافقني إلى الأعلى!

جان:

إلى مخدَعِكُم؟ ها قَدْ عُدتِ إلى جُنونِكِ! - ***يتردّدُ لِلَحظة.*** -كلّا! إذهبي! حالاً! ***يأخذُ بيدِها ويَمضي بِها إلى الخارِج.***

الآنسة *بينما هي تسير:*

تَكلَّم مَعي بِلُطفٍ يا جان!

جان:

وَقْعُ الأوامِرِ قاسٍ دَوماً على السَّمعِ: ذُوقي! ذوقي!

جان ***وحدَهُ، يتنفّسُ الصُّعداء: يجلِسُ إلى الطّاولة، يتناوَلُ دَفتَراً وقَلَماً، يحسُبُ بِصَوتٍ عالٍ بينَ حينٍ وآخر تندُّ عنه إيماءاتٌ صامتة، حتّى تأتي كريستين مُرتَديَةً ثيابَ زيارةِ الكنيسة، وفي يَدِها معطَفُ أسود ووشاحٌ أبيض.***

كريستين:

سيّدي المسيح، ما هذا المَنظَر؟ ما الذي فَعَلتُموهُ بالمَكانِ؟

جان:

آه، إنّها الآنسة، التي جَرّتْ خلفَها الخَدَمَ إلى هنا. أكنتِ غارِقَةً في النّومِ، بحيثُ لم

تَسْمَعي شيئاً؟

كريستين:

لقد نِمتُ كجُثَّةٍ هامِدة!

جان:

وها أنتِ بثيابِ الكورالِ الكنَسِيِّ؟

كريستين:

نعم! وَقَدْ وَعَدَني جان بِمُرافَقَتي إلى القُدّاسِ اليومَ!

جان:

نعم! نَطَقتِ حقّاً! - وقَدْ جَلَبْتِ مَعَكِ ردائي! تَعالِي إذَن! ***يُعَدِّلُ جلستَهُ، وتبدأ كريستين بإلباسِهِ المعطفَ والوشاح!***

تَوَقُّف.

جان *نَعِساً*:

ما مَوعِظَةُ اليوم؟

كريستين:

أظُنُّها ستكونُ عن قطعِ رأسِ يوحنّا المعمدان!

جان:

ستكونُ حتماً موعظةً شنيعةَ الطّول! - آي، أنتِ تخنُقينَني! - آه، كم أنا نعسانٌ، في غايةِ النّعاس!

كريستين:

حسناً، ما الذي كانَ جان يَفعلُهُ طوالَ الليل، حتّى يَخضرَّ وَجهُهُ إلى هذا الحدِّ؟

جان:

لقد جلستُ هنا أتحدّثُ مَعَ الآنسةِ جولي!

كريستين:

إنّها لا تَعرِفُ ما يليقُ وما لا يليقُ بِها، تلكَ المرأة!

تَوَقُّف.

جان:

اِسمعي يا كريستين!

كريستين:

خَيراً؟

جان:

إنَّهُ لَأمرٌ غريبٌ على أيَّةِ حالٍ، حينَ يتأمّلُهُ المرء. - هي!

الآنسة:

ما هو الأمرُ الغريب؟

جان:

كُلُّ شيء!

تَوَقُّف.

كريستين *تنظرُ إلى الكؤوسِ نصفِ الفارغةِ على الطاولة:*

هل شَرِبتُما مَعاً؟

جان:

نعم!

كريستين:

ثبًا! - واجِهْني وانظُر إلَيّ!

جان:

نعم!

كريستين:

أيُمكِنُ؟ أيُمكِنُ؟

جان بعد تفكير:

نَعم! هُو كذلك!

كريستين:

أفّ! ما كُنتُ معَ ذلكَ لِأُصَدِّقَ أبداً! كلّا! تَبّاً! تَبّاً!

جان:

لا إخالُكِ تغارينَ مِنها؟

كريستين:

كَلّا، ليسَ مِنها! لَو كانتْ كلارا أو صُوفي، لَكُنتُ اقتَلَعتُ عَينَيكَ! - نَعَم، هو كذلكَ، ولا أعرِفُ لماذا. - كلّا، يا لَهُ مِن أمرٍ مُريع!

جان:

أتشعرينَ بالضغينةِ نحوَها، إذَن؟

كريستين:

كلّا، بَلْ نَحوَ جان! بِئسَ الفِعلُ، بِئسَ! الفتاة المسكينة! - كلّا، ولْيَكُنْ في العِلْمِ: لا أريدُ البقاءَ في هذا المَنزِلِ بَعدَ الآنَ، حيثُ لا يستطيعُ المَرءُ احترامَ سادَتِه.

جان:

ولماذا على المرءِ أنْ يَحترِمَهُم؟

كريستين:

حسناً، قُل أنتَ، أيُّها اللَقاحُ! حسبتُ جان لا يَوَدُّ أنْ يَخدِمَ أُناساً يرتكبونَ الفُحشَ، أمْ ماذا؟ إنَّ المَرْءَ يَجلُبُ الخِزيَ لِنَفسِهِ بذلك، كما أرى!

جان:

نَعَم، ولكنَّ في الأمرِ عزاءً لنا أنْ نَرى أنَّهمْ لَيسوا خيراً منّا!

كريستين:

كلّا، لا أعتَقِدُ ذلك، لأنَّهم إنْ لَمْ يَكونوا خَيراً مِنّا، فلا معنى للسّعيِ كي نُصبِحَ أُناساً أفضَلَ. - ثُمَّ فَكِّرْ بالكونت! فكِّرْ بِهِ وَقَدْ نالَ ما نالَ مِنَ الحُزنِ طيلةَ حياتِهِ! كلّا لا أريدُ البقاءَ في هذا المَنزِلِ بعدَ الآنَ! - ومَعَ شَخصٍ مِثلِ جان! لو أنَّهُ كانَ مَأمورَ الضَرائب: لو أنَهُ كانَ رَجُلاً أفضَلَ...

جان:

ومِن أيِّ نوعٍ من الرجالِ ذاك؟

كريستين:

حسناً! إنَّ فيكَ رجولةً تَفِي قَدرَكَ، ولكنَّ هناكَ فَرقاً بَينَ ناسٍ وناسٍ على أيَّةِ حال. - كلّا ليسَ بِمقدوري أبداً نسيانُ هذا - الآنسةُ التي كانت شديدةَ الكبرياءِ، وشديدةَ الحَزمِ مَعَ معشرِ الرِّجال، بحيثُ لا يَخطُرُ على بالٍ أنَّها ستذهبُ بَعيداً فتبتذلَ نَفسَها - - ومن أجلِ شَخصٍ كهذا! الآنسةُ نفسُها التي كادَتْ تُطلِقُ النّارَ على ديانا المسكينة لأنَّها رَكَضَتْ في إثرِ بَجِّ الحارس! نعم، إنَّني أقولها! - ولكنّني لا أريدُ البقاءَ هنا بعدَ الآنَ، وفي الرابعِ والعشرينَ من أكتوبرَ سأُغادِر.

جان:

وبعد ذلك؟

كريستين:

حسناً، طالما ذكَرْنا ذلك، فسيكونُ من المناسبِ لو بَدَأ جان التَّطَلُّعَ حولَهُ والبحثَ، باعتبارِ أننا سوفَ نتزوَجُ على أيّةِ حال.

جان:

ما الذي سأتَطَلَّعُ بحثاً عنه؟ مكانٌ كهذا من المستحيلِ أنْ أحصلَ عليهِ وأنا مُتزوّج.

كريستين:

كلّا، بالطبعِ! علَيكَ غالِباً العملُ كحارِسٍ أو التقديمُ للعمَلِ كبَوّابٍ في دائرَةٍ حكوميّةٍ. الوظائف الرّسميّةُ لا غِنى فيها، ولكنّها آمنة، كما أنّها تُعطي راتِباً تقاعدياً للزوجة والأطفال...

جان *مُقطّباً*:

هذا كُلُّهُ غايةٌ في الروعة، ولكنّني لستُ من النّوعِ الذي يُقَدّمُ التفكيرَ بالموتِ من أجلِ الزوجةِ والأطفال! لا بُدَّ لي من الاعترافِ بأنَّ طموحاتيَ، في الواقِعِ، أرفَعُ قليلاً من ذلكَ!

كريستين:

طموحاتُ جان، نعَم! وعليهِ واجباتٌ كذلك! فَكِّر بها أيضاً!

جان:

إياكِ ومضايقتي بالحديثِ عن الواجِباتِ، فأنا أعرِفُ الكفايةَ عَمّا يَتَوَجّبُ عليّ فعلُهُ! *يُنصِتُ إلى الخارِجِ*. لدينا الكثيرُ من الوقتِ عموماً للتفكيرِ في هذا. أدخُلي وهَيِّئي نَفسَكِ، حتى نذهبَ إلى الكنيسة.

كريستين:

مَن هذا الذي يسيرُ هناكَ في الأعلى؟

جان:

وما أدراني، ما لَمْ تَكُنْ كلارا.

كريستين *وهي تذهب:*

ليسَ الكونتَ على أيَّةِ حالٍ، إذْ لا أظنُّهُ أبداً قَدْ عادَ دونَ أنْ يَسمَعَهُ أحد.

جان *خائفاً:*

الكونت؟ كلّا، لا أظنُّ ذلكَ أبداً، لأنَّهُ كانَ سيَتَّصِلُ حتماً قَبلَ ذلك.

كريستين *وهي تذهب:*

نَعم، وَلْيَكُن الرّبُّ في عَونِنا! لمْ أرَ مَوقِفاً كهذا في حياتي أبداً.

في هذا الوقتِ، تكونُ الشّمسُ قَدْ أشرَقَتْ مُجَلِّلَةً بنورِها رؤوسَ أشجارِ الحديقةِ، ويتنقّلُ الضياءُ رُوَيداً، حتّى يَدخُلَ مائلاً عبْرَ النّوافِذِ.

جان *يسيرُ نَحوَ البابِ ويعطي إشارةً.*

الآنسة *تدخُلُ مرتَديةً ملابسَ السَّفرِ، حامِلَةً قَفَصَ طيورٍ صغيراً، مُغَطّى بقطعةِ قماشٍ، تَضَعُهُ على الطّاولَةِ.*

أنا الآنَ جاهِزَة.

جان:

صمتاً! كريستين صاحية!

الآنسة *في غايةِ الارتباكِ:*

أشَكَّتْ في شَيء؟

جان:

إنّها لا تعرفُ شيئاً على الإطلاق! ولكنْ يا إلهي، يا لِمَنظَرِكُم!

الآنسة:

ما بِه؟ كيفَ أبدو؟

جان:

حضرتُكِ شاحِبةٌ كَجُثّةٍ و- عَفواً، ولكنَّ وَجهَ حضرَتِكِ مُتَّسِخٌ.

الآنسة:

دَعْني أغتَسِلُ إذَنْ! - حسناً! ***تَذهَبُ نَحوَ المِغسَلَةِ وتغسِلُ وَجهَها ويَديها.*** أعطِني مِنشَفَةً! - آه - إنَّ الشَّمسَ تُشرِقُ!

جان:

وعندئذٍ يَبطُلُ السِّحرُ!

الآنسة:

نَعَم، كانتْ ليلَةً للسِّحرِ والمُشعوِذِينَ! - ولكن، جان، اِسمع! تعالَ مَعي، فمعي الآنَ مبلغٌ منَ المالِ!

جان *مُتَرَدِّداً*:

كافٍ؟

الآنسة:

كافٍ لِنَبدأ بِه! تعالَ مَعي، فليسَ بإمكاني الرحيلُ وحديَ اليومَ. تأمَّلْ، يومُ مُنتَصَفِ الصَّيف، وفي قِطارٍ خانِقٍ، محشورةً بينَ عددٍ هائلٍ مِن بَشَرٍ مُكتَظِّينَ لَنْ أنجو من أفواهِهِم حتماً، ونتوَقَّفُ بلا حراكٍ في كلِّ محطَّةٍ، بينما أنا أتوقُ للطَّيران. كلّا، لا أستطيع، لا أستطيع! ثُمَّ تأتي الذّكرياتُ: ذكرياتُ الطفولةِ عن أيامِ مُنتَصَفِ الصَّيفِ في الكنيسةِ المكسوّةِ بأوراقِ البتولا واللَّيلَك: العشاءاتُ والموائدُ الممدودة، الأقاربُ،

الأصدقاء، المساءات في الحديقة، الرقص، الموسيقى، الأزهارُ والألعاب! أوّاه! يَهربُ المرءُ، يهربُ، لكنّ الذّكرياتِ تتبعهُ في عربةِ الأمتِعَةِ، ومعها النّدَمُ وتأنيبُ الضّميرا

جان:

سآتي مَعَ حضرتِك - الآنَ فوراً، قَبلَ أن يفوتَ الأوانُ. الآنَ في التوِّ واللحظة!

الآنسة:

إذَنْ فارتَدِ ثيابَكَ! *تأخذُ قَفَصَ الطيور.*

جان:

ولكنْ، بِدونِ أُمتِعة! وإلا سَيَنكَشفُ أمرُنا!

الآنسة:

كلّا، بلا أيِّ شيء! إلّا ما يُمكِنُ وَضعُهُ في الكوبيه(26)!

جان *الذي أخذَ قُبّعتَه.*

ما هذا الذي تحمله الآنسة؟ ما هذا؟

الآنسة:

هِذهِ حسّونَتي! لا أريدُ أن أتركَها!

جان:

إي، نعم! هل سنأخذُ قَفَصَ طيورٍ معنا الآن؟ هلْ أنتِ بلهاء؟ اتركي القفَص!

الآنسة:

الشيء الوحيدُ الذي أريده معي مِن بيتي؛ الكائن الحيُّ الوحيد الذي يُحِبُّني، مُنذُ أنْ خذَلَتني ديانا! لا تَكُنْ قاسياً! دعني آخذها معي!

جان:

ألقِي القَفَصَ، أقولُ لَكِ! -ولا تَرفَعي صَوتَكِ- قَدْ تَسمَعُنا كريستين!

الآنسة:

كلّا، لَنْ أترُكَها لأيادٍ غَريبة! اقتلها إذَنْ، ذلك خَيرٌ لها!

جان:

هاتِي القذارةَ إذَن، حتّى أدُقَّ عُنقَها!

الآنسة:

حسَناً، ولكِنْ لا تُؤذِها! كَلّا.. لا، لا أستطيع!

جان:

أعطِينيها، أنا أستطيع!

الآنسة *تُخرِجُ العصفورةَ مِنَ القَفَصِ وتُقَبّلُها:*

أوّاه، يا صغيرتي سيرينة، هل سَيأخُذُكِ المَوتُ مِن أمِّكِ؟

جان:

رجاءً لا تخلُقِي مَشهَداً، الأمرُ يتعلَّقُ بِحياةِ حضرتِكِ، بِصالِحِ حضرَتِك! لِذا، هَيّا بسرعة! ***ينتَزِعُ العُصفورَةَ مِنها، يحمِلُها نَحوَ الوَضَمِ*(27)، *ويتناولُ الساطورا***

الآنسة *تُشيحُ بِوَجهِها.*

جان:

كانَ ينبَغي للآنسةِ أن تَتَعلَّمَ ذَبحَ الدَّجاج بَدلاً مِنَ الرِّمايَةِ بالمُسَدَّس - ***يضرِبُ عُنُقَ العُصفورة*** - حَتّى لا يُغشى علَيها بِسَبَبِ قَطرَةِ دم!

الآنسة تصرُخ:

أقتُلني أنا أيضاً! أقتُلني! أيُّها المُقتَدِرُ على ذَبحِ حَيوانٍ بَريءٍ دونَ أنْ تَرتَعِشَ يَدُه.

آهِ، إنّني أكرَهُكُم وأحتَقِرُكُم: بينَنا الآنَ دَم! إنّني ألعَنُ تِلكَ السّاعةَ التي رأيتُكُم فيها، إنّني ألعَنُ السّاعةَ التي سكنتُ فيها بَطنَ أمّي!

جان:

حسَناً، وما فائدَةُ اللّعن؟ إذهَبي!

الآنسة تقترِبُ مِنَ الوَضَمِ، وكأنّها تُجرُّ إليه جرّاً رَغمَ أنفِها:

كلّا، لا أريدُ الذّهابَ، بَعدُ. لا أستَطيع... يجبُ أن أرى... صَمتاً! أسمَعُ عَرَبَةً تَسيرُ هناكَ في الخارج - ***تُصغي نحوَ الخارِجِ، بينَما عيناها ما انفَكّتا طوالَ الوَقتِ تُحدّقانِ نحوَ الوَضَمِ والسّاطور.*** ألا تَظُنُّني قادِرَةً على رُؤيَةِ الدّم؟ أتَظُنُّني بِهذا الضّعفِ... آهِ - تَمَنّيتُ لَو رأيتُ دَمَك، مُخَّكَ على قطعةِ خَشَب - تَمَنّيتُ لَو رأيتُ جِنسَكَ بأجمَعِهِ يَسبَحُ في بُحَيرَةٍ كَهذِهِ... أعتقِدُ أنّ بإمكاني أن أشرَبَ مِن طاسِ رأسِكَ، وأنني أريدُ أن أخوضَ بِقَدَمَيّ في قَفَصِ صَدرِكَ وأظنني قادِرَةً على أكلِ قَلبِكَ مشويّاً! - تَظُنُّني ضَعيفةً. تَظُنُّني أحِبُّكَ لأنّ رَحِمي اشتَهى نُطفَك. تَظُنُّ أنني أرغَبُ في حَملِ وَريثِكَ تَحتَ قَلبي وأن أغَذّيَهُ بِدَمي - أن أَلِدَ طِفلَكَ وأحمِلَ اسمَكَ! يا هذا، ما اسمُك؟ لَم يسبِق لي أبداً أن سَمِعتُ لَقَبَك - لَعلّكَ لا تَملِكُ لَقَباً، حسبَ ظَنّي. كنتُ سأصبِحُ حَرَمَ «البَوّاب» أو المدام «زَبّال» - أيّها الكلبُ الذي يحملُ حولَ عُنُقِهِ طَوقي، أيُّها الصُّعلوكُ الذي تحملُ أزرارُ قَميصِهِ شعارَ بيتي - أقاسِمُكَ معَ طَبّاختي؟ أنافِسُ لأجلِكَ خادِمَتي؟ آه! آه! آه! - تَظُنُّني جبانةً وأريدُ الهَرَب! كلّا، أنا الآنَ باقية - وَلتَضرِبِ السّماءُ بصواعِقِها! سيعودُ والِدي إلى البيتِ... لِيَجِدَ خِزانَتَهُ قَدْ كُسِرَت... ونقودَهُ قَد اختَفَتْ! وهكذا سيَقرَعُ هذا الجَرَسَ... مَرّتَينِ طالِباً خادِمَهُ - ثُمّ يُرسِلُ في طَلَبِ الشرطة... ثُمّ أخبِرُهم بِكُلّ شيء! كلّ شيء! آه ما أجملَ الحصولَ على نهاية - مُجَرّدَ أن تكونَ هناكَ نهاية! ثُمّ يُصدَمُ ويَموتُ!... فَنَنتَهي جميعاً - - ثُمّ يَعُمُّ السّكون... والسّكينة!... راحةٌ أبَدِيّة! ثُمّ يُهَشَّمُ الشّعارُ على النّعشِ(28) - ينقرِض أهلُ الكونت - - وأبناءُ الخَدَمِ ماضونَ بحيواتِهم في دارِ أيتام... يُكَلّلونَ بِغارِ الحَضيضِ وينتهونَ إلى السّجن!

جان:

ها هوَ الدّمُ الملَكيّ يَنطِقُ! أحسَنتِ، آنسة جولي! الآنَ أكرِميني بِذَهب شكوتِكِ، بَدلاً من فِضّةِ لَغوكِ!

كريستين تَدخُلُ وفي يَدِها كتابُ تراتيم.

الآنسة تُهرَعُ نَحوَها وترتمي في حضنِها، وكأنّها تَطلُبُ منها الحمايةَ.

ساعِديني يا كريستين! ساعِديني ضِدَّ هذا الرَّجُل!

كريستين ساكِنَةٌ وببرود:

أيُّ مَشهَدٍ هذا الذي يجري صبيحةَ العيد؟ *تَرنو إلى الوَضعِ*. وما هذه القذارة التي خَلَّفتُما هُنا؟ - ما مَعنى هذا كلِّهِ؟ وما هذا الصّراخ وهذه الجَلَبَة؟

الآنسة:

كريستين! أنتِ امرأة، كما أنّكِ صديقتي! اِحذري هذا الشّقيّ!

جان *مُحرَجاً وعلى حياء:*

بينما الآنستانِ تتباحثانِ سأذهبُ لِأحلِقَ ذَقني! *يَنسَحِبُ إلى اليمين خارِجاً.*

الآنسة:

يَجِبُ أنْ تَفهَميني، ويَجِبُ أن تَسمَعيني!

كريستين:

كلّا، فأنا في الواقِعِ لا أفهَمُ أموراً مُلتَوِيَةً كهذهِ! إلى أينَ تَنوي الآنسةُ الذهابَ بثيابِ السّفَرِ هذه - بينما هو يقفُ مُرتَدياً قُبّعَتَه - ها؟ - مَا؟ -

الآنسة:

اِسمعيني، يا كريستين، اِسمعيني، وسوفَ أحكي لكِ كلَّ شيء - - -

كريستين:

لا أريدُ أنْ أعرِفَ شيئاً...

الآنسة:

يَجِبُ أن تَسمَعيني...

كريستين:

بشَأنِ ماذا؟ أبِشَأنِ العَبَثِ مَعَ جان؟ حسناً فالأمرُ لا يُهِمُّني إطلاقاً، لأنّني لا شأنَ لي فيه. إنّما إذا كانت الآنسةُ تنوي إغواءَهُ بالهروبِ، فَسَنَضَعُ حَدّاً لذلك!

الآنسة *في أشَدِّ الارتباكِ*:

حاوِلِي أنْ تَهدأي الآنَ يا كريستين واسمَعيني! لا أنا أستطيعُ البقاءَ هُنا ولا جانْ يستطيعُ ذلك - لهذا يجِبُ أنْ نَرحَل...

كريستين:

همممممم، همممم!

الآنسة *تَنفَرِجُ أساريرُها*:

إنّما انظُري، لَقَدْ خَطَرَتْ لي فكرةٌ للتَوّ - أنْ نَرحَلَ ثلاثتُنا - إلى خارجِ البلَدِ - إلى سويسرا لِنُنشئَ فُندُقاً مَعاً. - - فلَدَيَّ مالٌ، كما تَرين - - وأنا وجان سنتحمَلُ النّفقاتِ جميعَها - وأنتِ، كما خَطَرَ لي، ستكونينَ مسؤولةً عن المطبَخ... ألَنْ يَكونَ ذلكَ رائعاً؟ - - وافِقِي الآنَ! وغادِري مَعَنا، وسيكونُ كُلُّ شيءٍ على ما يُرام! - - - قولي نَعَم! فقط! *تحتَضِنُ كريستين وتُرَبِّتُ على ظَهرِها.*

كريستين *تتفَكّرُ ببرودٍ*:

همممممم، همممم!

الآنسة *بإيقاعٍ سريع*:

لَمْ يَسبِقْ لَكِ أن سافَرتِ أبداً، يا كريستين - يجبُ أنْ تَخرُجِي وتَرَي العالَم. لنْ

تَتَخيّلي أبداً كم هوَ ممتِعٌ أنْ تُسافِري بالقِطار - أناسٌ جُدُدٌ بلا انقطاع - - بُلدانٌ جديدة - ثُمّ نَصِلُ إلى هامبورغ ونمُرُّ في طريقنا هناك بحديقةِ الحيوانِ - وسيعجبُكِ ذلك - ثُمّ نذهبُ إلى المسرحِ ونشاهدُ الأوبِرا - وحينَ نَصِلُ إلى ميونيخ، فسيكونُ لَدينا المتاحِف، وهناكَ، يا كريستين، سنجِدُ روبَنس ورَفائيل(29)، الرّسّامينِ العَظيمَينِ كما تَعلَمينَ - لا بُدّ أنّكِ قَدْ سَمِعْتِ بميونيخ حيثُ عاشَ الملك لودفيغ(30) - ذلك الملك الّذي، حسبَ عِلْمي، أُصيبَ بالجنون. - - كما أننا سوفَ نَرَى قِلاعَهُ - إنّ قلاعَهُ مبنيّةٌ ومُؤَثّثَةٌ كما في الحكاياتِ - ومِنْ هُناكَ، لَنْ تَكونَ سويسرا بَعيدةً - بِجبالِ الألبِ التي فيها يا كريستين - تَخَيّلي جبالَ الألبِ التي تُكَلِّلُها الثلوجُ في ذُروَةِ الصّيف - هناكَ حيثُ البرتقالُ والمروجُ الخُضرُ على مدارِ السّنة - - -

جان نراهُ في الكالوسِ اليمينِ، يَشحَذُ شَفرَةَ الحلاقَةِ على مِسَنٍّ(31)، يمسِكُ بِهِ بينَ أسنانِهِ ويَدِهِ اليُسرى. يُنصِتُ مسروراً إلى المُحادَثَةِ ويومئ برأسِهِ علامةَ الموافَقَةِ بَينَ حينٍ وآخر.

الآنسة بإيقاعٍ شديدِ السرعة:

وهناكَ نأخُذُ فُندُقاً - وسأشرِفُ على الخزينةِ، بينَما يَقِفُ جان في استقبالِ المُسافرينَ... ويذهبُ للتبَضُّعِ... ويكتُبُ الرّسائلَ – ستكونُ حياةً بديعةً، صَدِّقيني - وسَيُصَفِّرُ القِطارُ، وتأتي حافلاتُ النَّقلِ، ويرنُّ جرَسُ النُّزَلاءِ، وجَرَسُ المَطعَمِ – وسوفَ أُحرِّرُ الفواتير - وبإمكاني أن أجعَلَها دَسِمَةً بالطّبعِ... لا يُمكِنُكِ أبَداً أن تتخَيَّلي وَجَلَ النُّزَلاءِ، عِندَما يحينُ موعِدُ دفعِ الفَواتِيرِ! - أمّا أنتِ - سوفَ تتَرَبَّعينَ على عَرْشِ سَيِّدَةِ الطُّهاةِ في المَطبَخ. - بالطّبعِ فإنّكِ لَنْ تَقِفي عندَ الموقِدِ بِنَفسِكِ - وسيكونُ مِنْ حَقّكِ ارتداءُ ثيابٍ جميلةٍ وأنيقةٍ حينَ تَظهَرينَ للنّاسِ - وبمَظْهَرِكِ يا كريستين - حسَناً، أنا لا أُجامِلُكِ - بإمكانِكِ حتماً أن تصطادي رَجُلاً في يومٍ من الأيامِ الرائقة! وتَخَيّلي أن يكونَ إنجليزياً ثَرِيّاً – إنّهُم أسهَلُ النّاسِ ***تُبطئ الحديث*** اصطياداً — وهكذا نُصبِحُ أثرياءَ - ونَبتَني بيتاً فارِهاً على بُحيرةِ كومو - وبالطّبعِ فقَدْ يَحدُثُ أحياناً أنْ تُمطِرَ قليلاً هناكَ - ولكنْ ***تتَراخى*** الشّمسَ كذلكَ لا بُدّ أنّها ستشرِقُ مرةً — رغمَ أنّ الدنيا تبدو معتمةً — وَ - ثُمّ - وإلّا فبإمكانِنا الرحيلُ إلى ديارِنا ثانِيَةً - ونعود ***تتوَقّف*** — إلى

هُنا - أو إلى مَكانٍ آخرَ سواه —

كريستين:

حسناً! أتؤمِنُ الآنسةُ بهذا حقّاً؟

الآنسة *مُنهَكةً*:

إنْ كُنتُ أُؤمِنُ بذلك حقّاً؟

كريستين:

نَعم!

الآنسة *مُتْعَبةً*:

لا أعرِف: ما عُدتُ أُؤمِنُ بأيِّ شيء. ***تَهوِي إلى المصطَبة: تضَعُ رأسَها بينَ ذراعيها على الطّاوِلَة.*** لا شيء! لا شيءَ إطلاقاً!

كريستين *تَلتَفِتُ إلى اليمينِ حيثُ يَقِفُ جان:*

هكذا إذن؟ أكانَ جان ينوي أن يَهرُب؟

جان *مبهوتاً، يُلقي شفرةَ الحلاقةَ على الطّاولة:*

أهرُب؟ هذا كلامٌ زائدٌ عن الحاجة! لَقَد سَمِعتِ بنفسِكِ مُخَطَّطَ الآنسةِ، ومَعَ أنَّها الآنَ مُتعَبَةٌ بَعد سَهَرِ الليلةِ، فإنَّ هذا المُخَطَّطَ قابلٌ للتنفيذ فِعلاً!

كريستين:

أخبِرني! أحَقاً أردتما أن أُصبِحَ طاهيةً عندَ هذه الـ...

جان *بِجِدّة:*

مِنْ فَضلِكِ استعمِلي لُغَةً أرقى عندَما تَتكلَّمينَ في حضرةِ وَلِيَّةِ نِعمَتِكِ! أتَفهمينَ ذلك؟

كريستين:

وَلِيّةُ نِعمَتي!

جان:

نعم!

كريستين:

حقّاً؟ إسمعوا وَعُوا!

جان:

بلى، اسمعي وَعِي، فأنتِ أحوَجُ ما تكونينَ لأن تَسمَعِي أكثرَ، وتتكلّمي أقلّ! الآنسة جولي هي وليّةُ نعمَتِكِ، والسَّبَبُ الذي جَعَلَكِ تزدرينَهَا الآنَ أجدَرُ بأنْ يجعلَكِ تزدرينَ نَفسَك!

كريستين:

لقد كنتُ دوماً شديدةَ الاحترامِ لنفسي —

جان:

- إلى حدّ ازدراءِ الآخرينَ! -

كريستين:

- بحيثُ لَمْ أنحَدِر إلى ما دونِ مستوايَ. تعالَ وادَّعِ أنَّ طاهيةَ الكُونت كانت يوماً على علاقةٍ بالسّائسِ أو مُرَبّي الخنازير! أرِني إنْ كُنتَ تَجرؤ على ادّعاءِ ذلك!

جان:

نَعَم، لَقَدْ كُنتِ على علاقةٍ بِرَجُلٍ مُحترَمٍ، لِحُسنِ حَظِّكِ!

كريستين:

بَلى، هو رَجلٌ مُحترَمٌ يبيعُ شوفانَ الكونت الفائضَ من الإسطبلِ —

جان:

اسمعوا مَن يَتَكلَّمُ، تِلكَ التي تأخُذُ نِسبَةً عَنْ شراءِ الخضرواتِ ورشاوى منَ الجزّار!

كريستين:

ما هذا الهُراء؟

جان:

ولم يَعُد بِوسْعِكِ احترامُ سادَتِكِ؟ يا أنتِ، ويحَكِ، ويحك!

كريستين:

هلْ سَيُرافِقُني جان إلى الكنيسةِ أمْ لا؟ لَعلَّهُ بحاجةٍ إلى قُدّاسٍ يَليقُ بِمَأثَرَتِهِ!

جان:

كلّا، لَنْ أذهَبَ إلى الكنيسةِ اليومَ، لَكِ أنْ تَذهَبي وحدَكِ لِتَعتَرِفي بمناقِبِكِ!

كريستين:

نَعَمْ، ذلكَ ما سَأفعَلُ، وسأعودُ إلى البَيتِ بِمَغفِرَةٍ تكفيني وتكفي جان مَعي! لَقَد تألَّمَ المُخَلِّصُ وماتَ على الصَّليبِ مِن أجلِ خطايانا جميعاً، ولو اقتَرَبنا مِنهُ بإيمانٍ ونَفوسٍ توّابةٍ، فسَيَحمِلُ عَنّا آثامَنا كُلَّها!

الآنسة:

أتُؤمِنينَ بِهذا يا كريستين؟

كريستين:

إنَّهُ يَقينيَ الحيُّ، كيقيني مِنْ أنني أقِفُ هُنا، وهو يقينُ طفولتي الذي حفظتُهُ مُنذ كُنتُ صَبيّةً، آنسةُ جولي! وحيثُ كثُرَت الخَطيّةُ، ازدادَت النعمَةُ جِدّاً!

الآنسة:

أوّاه لَو كانَ لي إيمانُكِ! أوّاه، لو...

كريستين:

نَعَمْ، ولكنَّ المَرْءَ لا يَنالُ ذلكَ الإيمانَ، دونَ نعمَةٍ يَختَصُّه بها الرَّبُّ، وهي ليستْ مشاعاً للجميعِ كي ينالوها —

الآنسة:

وَمَنْ يَنالُها إذَن؟

كريستين:

إنَّهُ سِرُّ النِّعمَةِ الأعظمُ، كما ترى الآنسة، والرَّبُّ لا اعتبارَ عندَهُ لِأحَدٍ، إنَّما الأبعدونَ هُمُ المُقَدَّمونَ لَدَيهِ.

الآنسة:

حسناً، ولكنَّهُ بذلكَ يضعُ اعتباراً للأبعدينَ؟

كريستين *تواصِلُ*:

- وإنَّهُ لأسهَلُ أن يدخُلَ جَمَلٌ في سَمِّ الخِياط، من أن يدخُلَ ثَريٌّ في مَملَكةِ الرَّبّ! أتَرَينَ، آنسة جولي، هكذا تسيرُ الأمور! الآنَ سأذهَبُ على أيَّةِ حالٍ - لِوَحدي، وسوفَ أمُرُّ بالسّائسِ لأُخبِرَهُ بأن لا يُسرِجَ حصاناً أو يُهَيِّئَ عَرَبَةً، في حالِ أرادَ أحدُ السَّفَرَ قَبلَ عَودَةِ الكونت إلى الدّار! - وداعاً! ***تَذهَب***.

جان:

يا لَها مِن شيطانة! - وكلُّ هذا مِنْ أجلِ حَسّونٍ أخضَر!

الآنسة *بِتُؤدَة*:

دَعوا الحسّونةَ وشأنَها! – هَلْ تَرَونَ مَخرَجاً من هذا؟ نهايةً ما لهذا؟

جان *يتأمّل*:

كلّا!

الآنسة:

ما الذي كنتم ستفعلُونَهُ في مكاني؟

جان:

في مكانِ حضرَتِكِ؟ لحظةً رجاءً! - كنبيلةٍ، أم كامرأةٍ، أم كـ - مُنحطّةٍ؟ لا أعرف - بَلى! الآنَ أعرف!

الآنسة *تأخذُ شفرَةَ الحلاقةِ وتومئُ بها*:

هكذا؟

جان:

نَعَم! - ولكنّني ما كنتُ لأفعَلَها - أرجو مُلاحَظَةَ ذلك! لأنَّ هنالكَ فَرقاً بيننا!

الآنسة:

لأنّكم رَجُلٌ وأنا امرأة؟ وأيُّ فَرقٍ في ذلك؟

جان:

الفَرقُ إيّاهُ - الذي - بينَ الرَّجُلِ والمرأة!

الآنسة *والشّفرةُ في يَدِها*:

أُريدُ ذلك! ولكنّني لا أستطيع! - كما لَمْ يَستَطِعْ أبي كذلكَ، تلكَ المَرّةَ التي أرادَ فيها أنْ يفعلَها!

جان:

كلّا، ما كانَ لِيَفعَلَها! كان يجبُ عليهِ أنْ يَنتَقِمَ أوّلاً!

الآنسة:

والآنَ تَنتَقِمُ أُمّي ثانيةً، مِن خلالي.

جان:

أَلَمْ تُحِبّي أباكِ، آنسة جولي؟

الآنسة:

بَلى، بلا حدٍّ، ولكنّني كَرِهتُه كذلكَ حتماً! لا بُدَّ أنني كرهتُه دونَ أنْ أُلاحِظَ ذلك! ولكنّهُ هو الذي رَبّاني على كراهيةِ جنسي، على أن أكونَ نِصفَ امرأةٍ ونصفَ رَجل! ذَنْبُ مَن كُلُّ ما جَرى؟ ذَنْبُ أبي؟ أمّي؟ ذنبي أنا؟ أنا؟ لا شيءَ لي أنا! ما مِنْ فِكرَةٍ فَكَّرتُ فيها، حتّى، إلّا وقَدْ أخذتُها عنْ أبي، ما مِنْ عاطِفَةٍ إلا وأَخذتُها عَنْ أُمّي. ثُمَّ تلكَ الأخيرةُ - تلكَ القائلةُ بأنَّ الناسَ جميعاً سواسية - أَخَذتُها عَنْهُ، خَطيبي - الذي، لذلك، أُسَمِّيهِ بالوضيعِ! كيفَ يُمكِنُ أنْ يكونَ الخطأُ خَطأي أنا؟ أزمي الإثمَ على يسوع، كما فَعَلَت كريستين؟ - كلّا، أنا أشدُّ كِبرياءً وذكاءً، من أن أفعلَ ذلكَ، - والفضلُ لما تَعَلَّمتُهُ مِن أبي — أما أنَّ الأثرياءَ لا يدخلونَ الجنّة، فَكَذِبٌ، وكريستين التي تملُكُ مالاً في بنك التوفير لَنْ تَصِلَ على الأقلِّ إلى هناك! الخطأُ خَطأُ مَن؟ - وما شأنُنا بِذلك؟ فأنا على أيّةِ حال مَن سيَنوءُ بالوِزرِ، ويتحمَّلُ العواقِب...

جان:

نَعم، ولكن — ***رنّتانِ حادّتانِ للجرس. تهرَعُ الآنسةُ مُنتَصِبةً، بينما يُغَيِّرُ جان معطَفَه.***

جان:

لَقَدْ عادَ الكُونْت! ماذا لو أنَّ كريستين —

يذهبُ إلى أنبوبِ النّداءِ، يَطرُقُ ويُنصِتُ.

الآنسة:

أَتَظُنُّهُ رَأى خزانَتَه؟

جان:

معكم جان! سيّدي الكونت! ***يُنصِتُ!* *(ملاحظة: لا يسمعُ المُتفرّج ما يقولُ الكونت.)*** نَعم، سيدي الكونت! ***يُنصِتُ!*** نَعم، سيدي الكونت! حالاً! ***يُنصِتُ!*** فَوراً، سيدي الكونت! ***يُنصِتُ!*** حاضرا بعد نِصفِ ساعة!

الآنسة *بمنتهى الجزَع*:

ماذا قال؟ يا إلهي، ماذا قال؟

جان:

طَلَبَ حذاءَهَ وقَهوَتَه بعدَ نصفِ ساعة.

الآنسة:

نصفُ ساعةٍ إذَن! آه، كم أنا متعبة، لا طاقةَ بي لِفِعلِ شيء، لا طاقةَ بي للنَّدَمِ، ولا للهربِ، ولا البقاءِ، ولا الحياةِ - ولا الموتِ! ساعِدني الآن! مُرني، وسأطيعُ مثلَما يفعلُ كلب! أسدِ لي معروفاً أخيراً، أنقِذْ شَرَفي، أنقِذْ اسمَه! أنتم تعرِفونَ ما يَجِبُ أن أشاءَ، ولكنّني لا أشاؤه... لتَكُنْ مَشيئتُكم، ومُرني بِفِعلِهِ!

جان:

لا أدري - ولكنَّني مثلُ حضرَتِكِ لا أستطيعُ - لا أفهَمُ - أشعُرُ وكأنَّ هذا المعطَفَ جَعَلَني - عاجِزاً عَن أنْ آمُرَ حضرَتَكِ بِشَيء - والآنَ، مُنذُ تَكَلَّمَ الكونتُ معي - فإنني - لا أستَطيعُ حقّاً إيضاحَ ذلكَ - ولكنْ - آه، إنَّهُ ذلكَ الخادِمُ اللعينُ الّذي يسكُنُني! - أظُنُّ أنّني، فيما لَو نَزَلَ الكونتُ الآنَ - وأَمَرَني بِأنْ أذبَحَ نفسي، سأفعلُ ذلكَ حيثُ أقِف.

الآنسة:

تَظاهَزوا إذَنْ بِأنَّكَم هُو، وأنّني أنتمْ! كنتُم للتوّ تُمَثِّلونَ بِبراعةٍ، حينَ جَثَوتُم على ركبتِكُم - كنتُم كأيِّ نبيلٍ لحظَتَها - أمْ - ألَمْ تَحضُروا أبَداً عَرضاً لِمُنَوِّمٍ مِغناطيسيّ؟ - ***يومئ جان بالإثبات.*** - يقولُ للمرءِ: خُذ المكنَسَة، فَيَأخذُها. يقولُ: اكنُس، فَيَكنُس - - -

جان:

إذن فَعلى الآخرِ أن يَكونَ نائماً!

الآنسة *بنشوَةٍ عارمة*:

وأنا نائمة مُسبَقاً - المكانُ بأكمَلِهِ أشبَهُ بالدُّخانِ في نظري... وأنتم أشبَهُ بِمَوقِدٍ حديديٍّ لَهُ هيئةُ رَجُلٍ أسوَدِ الثيابِ ذي قُبَّعَةٍ طويلة - وعيناكُم تضيئان كجَمرَتَينِ عندَما تَخمُدُ النّار - وَوَجهُكُم بُقعَةٌ مِن بَياضٍ أشبَهُ برمادِ ذلك الجمر - ***تَسقُطُ أشِعَّةُ الشَّمسِ في هذه الأثناءِ على الأرضيَّةِ مُضيئةً وجهَ جان.*** - كم هوَ دافئٌ وطَيِّب - ***تفرك يَدَيها كمَنْ يَتَدَفَّأُ قُبالَةَ نارٍ.*** - وكم هو مُشرِقٌ - وكم هو هادئ!

جان *يأخُذُ شَفرَةَ الحلاقةِ ويضعها في يَدِها*:

هذهِ هي المِكنَسَة! اخرُجي بها الآنَ بينما الوقتُ نهار - إلى اللوج - و... ***يهمِسُ في أُذُنِها.***

الآنسة *يَقِظَةً*:

شُكراً! سأذهَبُ الآنَ لأرتاحَ! ولكِنْ أخبِروني فقط - أنَّ بإمكانِ المُقَدَّمِينَ أن ينالوا هِبَةَ العَفو. قُولوها، حتّى وإنْ كنتُم لا تُؤمِنُونَ بِها.

جان:

المُقَدَّمونُ؟ كلا، لا أستطيعُ ذلك! - إنَّما انتَظِري - آنسة جولي! الآنَ أعرِفُ! بما أنَّ حضرتَكِ ما عُدتِ مِنَ ضِمنِ المُقَدَّمِينَ - فحضرتُكِ الآنَ منَ - الأبعَدينَ!

الآنسة:

هذا صحيح. - أنا واحدةٌ مِنْ أبعَدِ الأبعَدينَ: أنا الأبعَدُ! آه! - ولكنَّني الآنَ لا أستطيعُ الذهابَ - قُولوا لي ثانيةً أنْ أذهَبَ!

جان:

كلا، أنا كذلكَ لَمْ أعُدْ أستطيعُ! لا أستطيعُ!

الآنسة:

والمُقدَّمونَ سيُصبِحُونَ الأبعَدين!

جان:

لا تُفَكِّري، لا تُفكِّري! حضرتُكِ كذلكَ تَسلُبينَ طاقَتي مِنّي، فَأُجبُنَ — ماذا؟ ظَنَنتُ الجَرَسَ تَحَرَّكَ! - كلا! هلْ نَضَعُ بَعضَ الوَرَقِ فيه؟ — أن يشعرَ المرءُ بهذا الخوفِ كلّه مِنْ جَرَس! - حسناً، لكنَّهُ ليسَ جَرَساً وَحَسبُ - هناكَ مَنْ يجلِسُ خَلفَهُ - يَدٌ تُحَرِّكُهُ - وشيءٌ آخرُ يُحَرِّكُ اليَدَ - إنَّما ضُمَّ أُذُنَيكَ فَقَط - ضُمَّ أُذُنَيك! عندَئذٍ سيُصبِحُ رَنينُهُ أعلى وأفْظَعَ! سيبقى يَرِنُّ وَيَرِنُّ حتّى يُلَبّي المرء - وعندَئذٍ يكونُ الأوانُ قد فات! ويأتي الدَّرَك - ثُمَّ —

رَنَّتانِ هائلتانِ للجرس.

جان يرتَعِدُ، ثُمَّ يتَماسَكُ مُعَدِّلاً هيئته:

الأمرُ مُريع! إنّما ما مِنْ نهايةٍ أُخرى! - اِذهَبي!

الآنسة تسيرُ بِحَزمٍ لِتَخرُجَ عبرَ الباب.

ستارة.

---

(1) الرُّقاص، أو داء الرَّقص (بالسُّويدية: Danssjuka وبالإنجليزية: Chorea): اضطرابٌ عصبيٌ يتمثَّلُ بخللٍ حركيٍّ لا إرادي قد يصيب شِقّاً أو طرفاً أو عضواً من جسم الإنسان، أو قد يصيب جميعَ أطرافِه. (المترجم)

(2) الاعتلال الشَّهريّ (بالسُّوَيدية: Månadsjuka/ Månsjuka وباللاتينية: Lunaticus): هو في العمومِ كلُّ اضطرابٍ نفسيٍّ رَبَطَتْهُ المُعتقَداتُ الشعبيّةُ (الأوروبّيّة) والمعارِفُ القَديمةُ كذلك بِدَورَةِ القَمَر وتأثيرِها على الإنسانِ، كالصَّرَعِ والخَبَلِ والهياجِ العاطِفي. أما في السُّوَيدِ على وَجهِ الخصوص فقد استُخدِمَ المصطلحُ، علاوةً على ما سبَقَ، للتعبيرِ عن التَّقَلُّباتِ المزاجيّةِ لدى النساء بسبب الحيض خاصةً ودورتهن الشهرية التي تمَّ رَبطُها بالقمر وتأثيراتِهِ المختلفة أيضاً. ولم يذكر

ستريندبَرغ ذلك الاعتلالَ في متنِ النّصّ صراحةً، كما فعلَ هنا في المقدمة، لكنّهُ نوّهَ إليهِ على لسانِ شخوصه (ثلاثتهم) وهم يُشيرونَ إلى الأمرِ تلميحاً، لا تصريحاً حينَ يذكرونَ «جنونَها» و«هيجانَها» و«اضطرابَها». فكلُّ ذلك، من وجهةِ نظر الشخوص أنفسهم، قد يكونُ مُتأتياً من هذا الاعتلالِ. (المترجم)

(3) الأفروديتي: المثير للشهوةِ الجنسيّةِ، والصفةُ نسبة إلى الإلهة اليونانية أفروديت. (المترجم)

(4) هاربجون (Harpagon): اسم الشخصيّة الرئيسة في مسرحية موليير «البخيل». (المترجم)

(5) يقصد ستريندبرغ نَفسَهُ بـ«الطّبيعيّ»، أي المؤمن بالمذهب الطّبيعي. (المترجم)

(6) المُكَحّلَة (بالسُّوَيدية Hyacint وبالإنجليزية Hyacinth): نباتٌ «بَصَليٌ» من نباتاتِ الزينة، يُعرَفُ بأسماء عديدة بالعربية، منها «الغيسَلان»، و«الياقوتيّة المشرقية» و«الياسنت». ويلزمُ المُكَحّلَةَ تعتيمٌ للإبصالِ أثناء زراعتِها حتّى يشتدَّ عودُها، وهذا ما يُشيرُ إليهِ المؤلف. (المترجم)

(7) الأخَوانِ إدموند (١٨٢٢-١٨٩٦) وجول (١٨٣٠-١٨٧٠) غونكور (Edmond & Jules Goncourt): أديبانِ فرنسيّانِ ألّفا معاً مجموعةً من الأعمالِ الأدبيةِ التاريخية والمونوغرافيا والروايات. ويُنظَرُ إليهما أدبيّاً كأبَوينِ للمذهب الطّبيعي ذي المنحى النّفسي. أما المونوغرافيا أو «الأفرودة»، فكتابةٌ تستنفد موضوعاً أو مادةً ما بحثاً ونقاشاً من الجوانب كافّةً، ويمكن اعتبار الدراساتِ والبحوثِ العلمية والمقالاتِ المتخصصة المستفيضة من ضمن أشكالِها. (المترجم)

(8) الخارجُ عن القانون: Den Fredlöse. (المترجم)

(9) المونودي (بالسُّوَيدية: Monodi وبالإنجليزية: Monody): يقصِدُ ستريندبرغ، تحديداً، القصيدةَ الرثائيةَ الإغريقية التي كانت تُؤدّى من قِبَلِ مؤدٍّ واحد، لا من «جوقة». (المترجم)

(10) الإثنوغرافيا (بالسُّوَيدية: Etnografi وبالإنجليزية: Ethnography): هي في حدِّ ذاتِها تقنيةٌ علميةٌ لوصفِ ومقارنةِ الأعراقِ والثقافاتِ المختلفةِ في العالم. والمؤلِّف يُشيرُ هنا إلى ذلك النوع من الموسيقى (الشعبيّةِ) المرتبِطِ بشدّةٍ وعبر مزايا مُحَدّدة بثقافةٍ بعينِها أو عِرقٍ من الأعراقِ، بحيث لا يمكنُ للمتلَقّي تجاهلُ أو تجاوزُ ذلك الارتباط أثناء سماعِ تلك الموسيقى. (المترجم)

(11) نِيذفِيسا (Nidvisa): إسمٌ يُطلَقُ على نوع من الأغاني الشعبيّةِ في السُّوَيد يُغَنّى لغرض

إهانةِ شخصٍ، أو عِرقٍ ما مِنَ الناسِ، والتعريضِ بِهِ. (المترجم)

(12) أضواء الزامبِ أو أضواء حافّة خشبة المسرح (بالسّوَيدية: Rampljus وبالإنجليزية: Footlights): صفٌّ من المصابيح الممتدة على حافّة مُقدّمةِ خشبة المسرح، قُبالة الجمهور. (المترجم)

(13) عيون الثيران (Oxögon) ومفردها «عين الثور» (Oxöga): نَوعٌ مِن اللُّوجاتِ المُغلَقَةِ، المعزولَةِ في بعض المسارِحِ، لها فتحات صغيرةٌ مُدَوَّرَةٌ أو مَعينيّةٌ، أطلقَ جمهورُ المسارِحِ عليها تسميةَ «عين الثور»، يمكنُ النّظرُ من خلالِها إلى خارجِ اللوج، وعلى عكس باقي أنواعِ اللوجاتِ المفتوحةِ التي تُبنى في المسارِحِ لِتُظهِرَ الجالِسَ فيها، كلوجاتِ الملوكِ، فوظيفةُ «عيونِ الثيرانِ» الحفاظُ على سِرِّيَّةِ الجالِسِ فيها وحمايته. (المترجم)

(14) في السنين الأخيرةِ من حياتِه، تحَقّقَت أمنيةُ ستريندبرغ هذه. ففي عام ١٩٠٧، ورفقةَ المسرحيّ السُّوَيديّ أوغُست فالك، أسّسَ وافتتَحَ مسرحاً صغيراً أطلَقَ عليه اسم «Intima teatern» (المسرح الحميمي). وقد شهد هذا «المسرح الحميميّ»، على مدى أربعة أعوامٍ، عَرضَ أربَعٍ وعشرينَ من مسرحيّاتِ ستريندبَرغ، منها خمسُ مسرحيّاتٍ ألّفَها خِصّيصاً للعرض على خشبته، وبما زادَ عن ألفٍ ومئةِ عرضٍ إجمالاً، حتى أُغلِقَ هذا المسرَحُ عام ١٩١٠. لكنّهُ أُعيدَ افتتاحُه عام ٢٠٠٣، بعدَ ترميمِهِ (لتتسع صالته لتسعينَ مقعداً)، وأُطلِقَ عليه اسم Strindbergs Intima Teater (مسرح ستريندبرغ الحميميّ). (المترجم)

(15) البَجّ: نوعٌ منَ الكلاب صغيرُ الحجمِ، ناعِمُ الفراء، واسع العينين، ويتميّزُ بأنفِه غير البارز عن وجهه المليء بالتجاعيد. (المترجم)

(16) فراكٌ أو ريدنغوت (بالسّوَيدية: Redingott/ Bonjour وبالإنجليزية: Frock coat): سترة رسمية صباحية طويلة تصل حتى الركبتين. (المترجم)

(17) حوار قصير بالفرنسية، حيث تقول له: «لطيفٌ جداً، سيد جان! لطيفٌ جداً!» فيجيبُها: «تقصدين المزاحَ، سيّدتي!»، لتردَّ عليه: «أتعنونَ أنّكم تتكلّمون الفرنسية!» (المترجم)

(18) بالفرنسية: حذارِ! فما أنا إلا رَجُل! (المترجم)

(19) الكاپريفوليوم (بالسّوَيدية: Kaprifolium وبالإنجليزية: Lonicera caprifolium): من أزهار الزينة، نبتُها مُعمِّرٌ دائم الخُضرة، لها عطرٌ أخّاذ وتزرع عادةً عند الأسيجة والأسوار. اسمها العلمي بالعربية: العسلة مَعِزيّة الأوراق، أو صريمة الجَدي! (المترجم)

(20) البورغون أو البورغنديّ (Borgogne): مِن أشهر وأنفَس أنواعِ النبيذ الفرنسي (الأحمر منه خصوصاً، لِخِفّتِه وجودَتِه)، واسمه مشتَقٌّ من مقاطعة بورغونيا في شرق فرنسا. (المترجم)

(21) Merde (فرنسية): غائط. أشهر وأيسر وأدنى الكلمات البذيئة بالفرنسية، ويوصف بها كلُّ شيءٍ لعين أو حقير أو تافه أو فظّ.. إلخ. (المترجم)

(22) الكُثاث (بالسّويدية: Kattgull وبالإنجليزية: Mica): حجرٌ برّاقٌ أملَس، يشبه الذهب، ينشأ في الجصّ. (المترجم، عن لسان العرب)

(23) في عبارةِ جان هذه سخريةٌ مُبطّنة يريدُ بها تكليلَ عزمِهِ لتحطيمِ الصورةِ الزائفة التي رسَمَها مِن قبلُ؛ حيث لَم يكن البرتقال، الذي جاء به الإسبانُ إلى أوروبا في القرن الخامس عشر، من الفواكِهِ الشائعة بَعدُ في عمومِ أوروبا (زَمَنَ وقوعِ أحداثِ المسرحية). وكان الحصولُ عليه وتناولُهُ في بعضِ أقطارِ وأقاليمِ أوروبا، الباردةِ الطّقسِ على وجهِ الخصوص، مقتصِرَيْنِ على فئاتٍ بِعَينِها من الموسرين، فَلَم يَتوَفّر لِعامّة الناس في مَحالِّ البِقالَةِ العاديّةِ هناك، بل اقتصر بيعُه على محالِّ العطارةِ التي تستجلبُ البهارَ وبعضَ أنواعِ الفواكِهِ وغيرَ ذلك من الأطعمةِ النادِرة حينئذٍ. ورغمَ أنّ بحيرةَ كومو، التي يدورُ الحوارُ حولَها هنا، تُنسَبُ إلى إيطاليا، وهي البلدُ الدافئ مقارَنَةً بالسويد، إلّا أنّ تلك البُحيرةَ تحديداً تَقَعُ عندَ جبالِ الألبِ قارِسَةِ البرد في شمالِ إيطاليا. (المترجم)

(24) المقصود من الأرومة هنا: أصل النّسَب. و«الأرومة»: أصلُ الشجرةِ وما يبقى منها في الأرضِ بعد القطع. وقد اخترنا هذا المصطلح لأن ستريندبَرْغ جعلَ جان يقول «anor»، بسبب تكلُّفِ شخصِ الأخيرِ، بدلاً من أن يقولَ «ursprung»، مثلاً، وهو المصطلَحُ الدارج لكلمة «أصل» في السّوَيدية. (المترجم)

(25) لئلّا يقع القارئ في التباسِ ظنّ أنّ ذلك يعني مسؤوليةَ الشرطة عن سِجِلّ النفوس في السّوَيد، لا بُدّ من توضيح: فقد كانَ سِجِلُّ النفوس في السّوَيد مستنداً إلى أرشيف الكنيسة لولاداتِ ووفياتِ السُّكّانِ، ولذا كانَ من مسؤولياتِ الكنيسة منذ بداية القرن الثامن عشر حتى عام ١٩٩١، حين أصبَحَ من مسؤولياتِ مؤسسة الضرائب. (المترجم)

(26) الكوبيه: عربةٌ صغيرةٌ تتسع لشخصينِ فقط. (المترجم)

(27) الوَضَم (بالسّوَيدية: Huggkubben وبالإنجليزية: Chopping block): قطعةٌ من الخشب الصلد، يُقَطّعُ اللحمُ عليها وتختلفُ أحجامُها باختلافِ مكانِ استخدامِها. مِن أسمائها الشائعة أيضاً «خشبة الجزّار». (المترجم)

(28) تهشيم الشعار على النعش: تقليدٌ اسكندنافيٌ مأخوذٌ عن تقاليدِ الفايكنغ في وداعِ موتى محاربيهم، حيث كان سيفُ أو رمحُ الفايكنغ الميت يُثنى أو يُكسَرُ قبلَ وضعه على الجثمانِ ليرافقه في رحلته الأخيرة. لِيَتَطَوَّرَ ذلك التقليد لدى نبلاء السُويد إلى تهشيمِ درعٍ يحملُ شعارَ عائلةِ النبيلِ الميتِ الذي لا وَلَدَ له تحديداً، بحيثُ ينقطع نسبُ عائلته بوفاتِهِ. وقد بقي هذا التقليد سارياً حتى عام ١٩٣٠ ووفاةِ الكونت ماغنوس براهَة الذي انقطع نسبُه بوفاتِه، ليكونَ آخِرَ نبيلٍ سويديٍ يُهَشَّمُ دِرعُ عائلته على نعشه عندَ دفنِه. (المترجم)

(29) تعني أعمالَ الرسامَين: البلجيكي بيتر پاول روبنس (Pieter Pauwel Rubens، ١٥٧٧-١٦٤٠) والإيطالي رفائيل (Rafaello Sanzio، ١٤٨٣-١٥٢٠). (المترجم)

(30) تقصدُ الملك لودڤيغ الثاني ملك باڤاريا (Ludwig II. von Bayern، ١٨٤٥-١٨٨٦). (المترجم)

(31) المِسَنُّ (أو المِشحَذَة، أو المِجلَخة): حزامٌ مِن جلْدٍ سَميكٍ، يُزفَقُ بِه حَجَرٌ عادةً، لِسَنِّ وشحذِ وتنعيمِ السكاكينِ والشفراتِ. (المترجم)